TAS 810 - 20/01

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد

تلمسان

كلية الآداب واللّغات

قسم اللّغة والأدب العربي

مذكرة لنيل درجة ماستر في الأدب والحضارة موسومة بـ:

مقاربة بين نبيّ جبران وزرادشت نيتشه

إعداد الطّالبتين:

لمياء بن واز

نجيّة بن واز

إشراف الأستاذ:

سيدي عبد الرّحيم مولاي البودخيلي

مناقشة الدّكتور:

عبد الحكيم والي دادة

السّنة الجامعية: 1433هـ /2012م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمـــــــــــــــة

إنّ موضوع مذكّرتنا هو مقاربة بين نبيّ جبران وزرادشت نيتشه، المؤلّفين اللّذين اعتبرا من أعظم ما أنتجه صاحباهما، ونالا من الشّهرة أكثر ممّا ناله أيّ عمل آخر قاما بهما. ونحن اخترنا جبران دون غيره من معاصريه إعجابا بما كتبه من شعر ونثر. أمّا نيتشه فلم نكن نعرفه قبل بحثنا هذا، فقد شاءت المفارقات أن نكتشفه عن طريق جبران. ولما كان موضوع بحثنا في البداية هو جبران خليل جبران في ضوء المؤثّرات الأوربية، وجدنا أنفسنا أمام مادّة واسعة ففضّلنا الاقتصار على مؤثّر واحد وهو شخصيّة الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه.

وإذا حاولنا التّأصيل للموضوع، قرأنا ذكرا لعنوان أطروحة تعذّر علينا الحصول عليها وسمت بعنوان: نبيّ جبران وزرادشت نيتشه للطّالب مصطفى سليم علم الدّين. وإن كانت هناك دراسات أشارت إلى الموضوع بصفة عامّة، تطرّقت إلى جانب تأثّر جبران بنيتشه.

كما لا يخف على أحد أنّ كلّ بحث تعترضه صعوبات، فمن الصعوبات الّتي واجهتنا، قلّة المصادر والمراجع، واختلاف في التّرجمات، إضافة إلى الإغلاق والإبهام في كثير من التّعابير عند جبران ونيتشه، نظرا إلى أنّهما وظّفا الفلسفة برموزها المختلفة في كثير من الأحايين، فبذلنا جهدا في الكشف عن بعض مغالقها وتطويعها لدراستنا لتوضيح الرّؤى، بمساعدة بعض الأساتذة.

أمّا المنهج الّذي اتّبعناه في بحثنا هذا هو المنهج التّكاملي الّذي يجمع بين المنهج الوصفي التّاريخي، والفنّي الأدبي. وقد نهجنا خطّة بدأناها بمقدّمة، ثمّ مدخلا بعنوان: نبذة عن حياة جبران ونيتشه،

إضافة إلى فصلين أوّلهما عنونّاه بنبيّ جبران، وثانهما بعنوان: زرادشت نيتشه، وانتهينا إلى خاتمة حوصلنا فيها مجموعة من النّتائج المتوصّل إليها، وأتممنا دراستنا بفهرست للمصادر والمراجع، وآخـــر للموضوعات. معتمدين في ذلك على بعض المصادر والمراجع من بينها: كتاب النّبي لجبران خليل جبران، ترجمة جميل جبر، وكتاب هكذا تكلّم زرادشت لفريدريك نيتشه، ترجمة فليكس فارس.

ولزمنا في هذه المقدّمة أن نشير إلى أنّنا سنعرض في بداية هذه الدّراسة إلى مدخل نشير فيه نبذة عن حياة كلّ من جبران ونيتشه.

الشّكـــر والتّقديـــر

نتوجّه بالشّكر العظيم لأستاذنا المشرف سيدي عبد الرّحيم مولاي البودخيلي، على نصائحه القيّمة، وعلى متابعته لهذه المذكّرة، وعلى صبره وتواضعه طوال مدّة الإشراف. فجزاه الله عنّا خيرا على تعبه المضني.

كما نقدّم خالص شكرنا لأعضاء لجنة المناقشة الموقّرة، لتفضّلها بتقييم هذه المذكّرة وتقويمها، وإجازتها بالدّرجة العلميّة المستحقّة.

كما نشكر رئيس قسم اللّغة العربيّة الدّكتور عبد الجليل مصطفاوي، ونشكر الأستاذين جزاهما الله خيرا، الدّكتور عبد القادر بودومة، والدّكتور أحمد عطّار.

فلهم جميعا عميق الاحترام والشّكر.

الإهـــــــداء

إلى من دفعت عمرها ثمنا من أجل الوصول بي إلى أعلى المراتب. إلى من غمرتني بدعواتها المباركة، أمّي الحبيبة أطال الله في عمرها.

إلى من شاركتني هذا البحث البسيط صديقتي الغالية نجيّة.

إلى كلّ من دعمني وشجّعني وهمّه وأسعده نجاحي.

إلى أساتذتي الأفاضل.

إلى جميع الأهل والأصدقاء.

أهديهم هذا العمل المتواضع.

لمياء

إلى من كرّسا حياتهما من أجل سعادتي، إلى من بذلا ما في استطاعتهما من أجل الوصول بي لأعلى الدّرجات العلميّة، إلى والديّ العزيزين أطال اللّه في عمرهما.

إلى رفيقة دربي ومن قاسمتني عناء هذا البحث صديقتي العزيزة لمياء.

إلى أعزّ ما أملك في الوجود، إخوتي وأخواتي.

إلى أساتذتي الأفاضل.

إلى كلّ الأهل والأصدقاء.

إلى كلّ هؤلاء أهدي ثمرة جهدي عربون محبّة ووفاء.

نجيـــة

المدخـــــــــــل

نبذة عن حياة جبران ونيتشه

جبران (حياته وأثرها في أدبه):

لقد رأينا أنّه لا يصحّ أن نكتب عن أديب قبل أن نعرف ملامح من حياته وثقافته ومؤلّفاته وموضوعاتها، وإن كان جبران[1] غنيّا عن التّعريف إذ كتب عنه الكثير من الباحثين والدّارسين. فالنّاظر لحياة جبران يجدها سلسلة من التّغيّرات والأحداث، فلم تكن حياته في طفولته وشبابه هنيئة بل كانت مليئة بالمتاعب والمصاعب الّتي أثّرت على سائر مؤلّفاته والنّثريّة بوجه خاصّ، حيث صبغت تلك الآثار بصبغة الحزن والمرارة والأسى والألم تارة والثّورة والتمرّد أخرى، والهدوء والاستقرار طورا ثالثا.

ففي بلدة بشري الرّابضة على كتف الوادي المقدّس في شمال لبنان قرب مغارة قاديشا وفي السّادس من يناير عام 1833م، ولد جبران خليل أسعد يوسف جبران من والد يعمل بجبي الرّسوم على الأغنام والماعز في جرود لبنان الشّماليّة وأمّ تدعى كاملة رحمة أرملة حنّا عبد السّلام الّذي مات عنها تاركا لها طفلا صغيرا اسمه بطرس. لقد كان والد جبران يصرف معظم وقته في السّكر ولم يهتم بأسرته الّتي لزم على زوجته مراعاتها، ولذلك لم يرسل جبران إلى المدرسة بل كان يذهب من حين لآخر إلى كاهن البلدة الّذي سرعان ما أدرك جديّته أنفق السّاعات في تعليمه الأبجديّة والقراءة والكتابة ممّا فتح أمامه

[1]. انظر: جبران خليل جبران مختارات ودراسات- سهيل بديع بشروئي. دار المشرق، بيروت، 1970، ص:5، 6

مجال المطالعة والتعرّف إلى التّاريخ والعلوم والآداب.

وبسبب الحاجة والفقر والإحساس بالظّلم وضيق الحياة، هاجرت الأمّ مع أبنائها متوجّهين إلى مدينة بوسطن الأمريكيّة واستقرّوا في حيّ فقير، وكان عمر جبران آنذاك يناهز الثّانية عشر ولم يكمل بعد دروسه الابتدائية في لبنان فأرسله أخوه بطرس ربّ العائلة الصّغيرة إلى المدرسة ليتعلّم الانجليزيّة وفنّ الرّسم حيث أذهل أساتذته بموهبته الأصيلة في هذا الفنّ.

وعاد جبران إلى وطنه لبنان عام1897م والتحق بمدرسة الحكمة وعكف على منهاج للدّراسة اختاره لنفسه تضمّن عددا من الموضوعات الّتي كان له شغف كبير بها، ولكنّ جلّ اهتمامه كان منصبّا على دراسة اللّغة العربيّة وآدابها، فاطّلع على الشّعر العربيّ القديم والحديث، وتعرّف على الحركة الأدبيّة المعاصرة له في العالم العربيّ، عاش تجربة حبّ عنيف انتهت به إلى صدمة قاسية وقد سجّلها في كتاب الأجنحة المتكسّرة. وعاد إلى بوسطن عن طريق باريس وهو ثائر على تقاليد بيئته والفوارق الطّبقيّة في مجتمعه آنذاك. ثمّ عاد إلى لبنان مرّة أخرى عام1902م، ولكنّه اضطرّ أن يعود إلى بوسطن فجأة عندما وصله نبأ وفاة أخته سلطانة الّتي سقطت ضحيّة مرض السلّ ونبأ مرض أمّه الّتي بدأ داء العضال يفتك بها أيضا. مات أخوه بطرس في مارس1903م، ولم يمهل مرض السلّ أمّه الّتي لحقت بابنها في شهر جوان. وهكذا لم يترك هذا المرض من الأسرة إلاّ جبران وأخته ميريانا نصيره ومعينه في أرض الغربة.

وبدأت رسوم جبران تحرّك اهتمام عدد كبير من النّاس، فأقيم لها معارض كان أوّلها في يناير عام 1904م بدعم من المصوّر الفوتوغرافيّ ألفريد هولانداي، حيث كان أوّل من أحاط جبران برعايته الفنيّة، وأقيم له معرض في آخر فبراير بقاعة مدرسة كمبردج، وهي مؤسّسة تعليميّة صاحبتها ومديرتها ماري هاسكل الّتي أصبحت فيما بعد أقرب النّاس إلى جبران، فهي الّتي أعانته ماليّا لتحقيق بعض مطامحه، وكان لها أكبر الأثر في حياته، وفي نفس الوقت دخلت حياته أيضا فتاة جميلة من أصل فرنسيّ اسمها إميلي ميشيل المعروفة بمشلين والّتي عاش معها تجربة حبّ.

وقد نشر أوّل كتابّ له بالعربيّة الموسيقى عام 1905م، وبعد ذلك بسنة نشر كتابه عرائس المروج الّذي شنّ فيه هجوما عنيفا على التعصّب الدّينيّ والإقطاع السّياسيّ والفوارق الطّبقيّة والاجتماعيّة حتّى أنّه لقّب بالثّائر.

وسافر إلى باريس عام 1908م لدراسة فنّ الرّسم والتّصوير والنّحت وللتمرّس في الفنّ بمعهد الفنون الجميلة، فبدأ يقرأ للأدباء الانجليز والفرنسيّين، ووقع تحت تأثير الشّاعر الانجليزي ويليم بليك[1]، كما بدأ يقع تحت تأثير الفيلسوف الألماني فردريك نيتشه[2] وكتابه هكذا تكلّم زرادشت وأعجب أيضا بابن

[1]. الفيلسوف انجليزيّ (1707م-1827)

[2]. انظر: المجموعة الكاملة- ميخائيل نعيمة. مج:3، ط:5، دار العلم للملايين، بيروت، 1999، ص:146

الفارض وابن سينا والغزالي وغيرهم. بالإضافة إلى تأثّره بالكتاب المقدّس الّذي رافقه منذ طفولته، فرسخت آياته في صميمه؛ وقد عبّر عن محبّته له وللمسيح في العديد من كتاباته.

وتجدر الإشارة إلى أنّ جبران قد تأثّر ببعض أدباء الشّرق ومعتقداته وأنبيائه وصوفيّته، فهو يذكر في كثير من كتاباته الأرواح والأشباح والمردة وهذا دليل على أهميّة التصوّرات الميثولوجيّة في تكوين رؤاه الفنيّة والفلسفيّة. كما كان لاحتكاكه ببعض الهنود سببا في تجاوبه مع المعتقدات الهندوسيّة ويظهر ذلك خاصّة في رماد الأجيال والنّار الخالدة.

وفي العام 1908م نشر كتابه الأرواح المتمرّدة ثمّ عكف على تأليف كتاب بعنوان فلسفة الدّين والتديّن ولكنّ الكتاب لم ينشر. وتابع دراسته في باريس حيث تعرّف على يوسف الحويك الّذي لازمه سنتين. وفي العام نفسه بدأت المراسلات بينه وبين مي زيادة الكاتبة اللّبنانيّة الّتي كانت تسكن مصر. وبدأت علاقة جبران بمي تتّخذ طابعا فريدا، فقد كانت علاقة أدبيّة من جهة وغراميّة من جهة أخرى، وبالرّغم من أنّهما لم يلتقيا قط فقد ازدهرت بين الاثنين عاطفة قويّة عرّفها البعض بأنّها كانت حبّا عبر المسافات واستمرّا يتكاتبان حتّى نهاية حياة جبران.

وبعد عام من عودته من باريس ودّع جبران بوسطن قاصدا نيويورك حيث أسّس فيها الحلقة الذّهبيّة عام 1911م وهي جمعيّة إصلاحيّة ذات طابع سياسيّ إلاّ أنّها لم تجد رواجا لدى المهاجرين العرب

فتمّ حلّها. وفي سنة 1912م استأجر محترفا في نيويورك عاش فيه وأصبح مقرّه الدّائم حتّى آخر أيّام حياته. ثمّ نشر قصّته الأجنحة المتكسّرة، وبعد ذلك بسنة نشرت مجموعة قصائده النّثريّة دمعة وابتسامة؛ وأوّل كتاب له بالانجليزيّة كان المجنون الّذي تمّ نشره عام 1918م، وبعد ذلك نشر قصيدته المواكب وضمّنها مجموعة فريدة من الرّسوم عبّر فيها عن أفكاره الصّوفيّة والفلسفيّة. وفي سنة 1920م نشر كتاب العواصف وهو مجموعة من القصص والقصائد النّثريّة، كما نشر كتابه الثّاني بالانجليزيّة السّابق.

وفي السّنة نفسها أسّس الرّابطة القلميّة الّتي ضمّت روّاد الحركة الأدبيّة في المهجر، كعبد المسيح حدّاد، نسيب عريضة، ميخائيل نعيمة، ندرة حدّاد، وليم كتسفليس، إيليا أبو ماضي، وديع باحوط، وإلياس عطاء الله. وقد انتخب جبران عميدا للرّابطة وكان لها ولإنتاج أعضائها بالغ الأثر في مستقبل الأدب العربيّ عند الأجيال المتعاقبة من شعراء العالم العربيّ في القرن العشرين وخاصّة شعراء المهجر.

وبدأت صحّة جبران تتدهور منذ عام 1921م، وبعد عامين من ذلك نشر البدائع والطّرائف، ونشر كتابه النّبيّ أشهر كتبه باللّغة الانجليزيّة، وأكثرها رواجا، والّذي تضمّن اثني عشر رسما. وفي عام 1926م نشر كتاب آخر بالانجليزيّة سمّاه رمل وزبد؛ وكان أطول ما كتب جبران هو كتابه يسوع ابن الإنسان الّذي نشره سنة 1928م. وقبل وفاته بأسبوعين نشر كتاب آلهة الأرض.

واستسلم جبران لمشيئة الحياة وما كان يحسب نفسه مستسلما للموت، فقد ظلّ يحارب المرض حتّى آخر نحب من أنحابه إلى أن توفّي في العاشر من شهر أفريل عام 1931م بمستشفى القدّيس فنسنت بنيويورك وقد أظهر الفحص الطبّي بعد الوفاة أنّ موته كان نتيجة تقلّص في الكبد وبداية مرض السلّ في إحدى الرّئتين، وقد وضع جثمانه بقاعة في نيويورك حتّى يتسنّى للمعجبين به ولمحبّي أدبه وفنّه أن يلقوا عليه النّظرة الأخيرة ونقل بعدها إلى مقبرة مؤقّتة. وفي الواحد والعشرين من أوت تمّ نقله إلى لبنان وهناك استقرّ في دير مار سركيس. وترك جبران عند وفاته كتابين نشرا بعد حين الأوّل التّائه والثّاني حديقة النّبيّ الّذي تركه دون أن ينسّقه فنشر عام 1933م، بعد أن قامت بإتمامه وتنقيحه الكاتبة الأمريكيّة بربره يانغ.

وبذلك انتهت حياة جبران الّذي قال الكثير، ولكنّ الكلمة الحقيقيّة الّتي شاء التلفّظ بها، لم تخرج من قلبه وقد قال في ذلك:"قد ولدت وعشت وتألّمت لأقول كلمة واحدة حيّة مجنّحة، ولكنّي لم أصبر. ولما صرت قادرا على لفظ أوّل حرف من كلمتي، وجدتني ملقا على ظهري، وفي فمي حجر صلد لا بأس كلمتي لم تزل في قلبي."[1] كما يقول في رسالة إلى مي زيادة:"لا، لم أقل كلمتي بعد، ولم يظهر من الشّعلة غير الدخّان...أقول لك يا مي ولا أقول لسواك، أي إذا ما انصرفت قبل تهجئة كلمتي

[1]. رسائل جبران- تقديم جميل جبر. المكتبة الثّقافيّة، بيروت، 1951، ص:51

ولفظها، فإنّي سوف أعود لأقول الكلمة الّتي تتمايل الآن كالضّباب في سكينة روحي."[1]

ثمانيّة وأربعون عاما أوّلها في بشري وآخرها في نيويورك ذلك هو الوقت الّذي أتاحته الأقدار لجبران كي يقول فيها كلمته وإن لم يتمكّن من قول الكلمة الحقيقيّة كما قال. تلك هي حياته بما فيها من بؤس وحرمان، وفشل في مجال الحبّ، قد انعكست صورتها على أدبه، فإذا هو صورة لنفس حزينة منطوية. فكثير من الخصائص الّتي تميّز بها أدبه يمكن تفسيرها من خلال مأساة حياته. فالكآبة والوحدة، والتّشاؤم والتبرّم بالحياة، والثّورة على المجتمع والتمرّد على رجال الدّين، والتأمّل والتّفكير في مصير الإنسان... كلّ هذا له صلة بحياته وما صاحبها من آلام وحرمان، فآلام الغربة والحنين إلى الوطن، كذلك الوحدة الّتي عانى منها فلقد قضى المرض على عائلته عدى أخته ميريانا الّتي لم يعد له أحد سواها. كلّ هذه الأسباب داعية إلى الغضب والثّورة، موحية بروح الشكّ والاضطراب، وقد عبّر جبران عن ذلك في كتبه وأشعاره، فتحدّث عن كآبته في الأجنحة المتكسّرة، وفي دمعة وابتسامة يفيض بالشّكوى من الحياة، كما له مقالات كثيرة ينعكس عليها تشاؤمه نذكر على سبيل المثال: في مدينة الأموات، موت الشّاعر حياته، بين الخرائب، حفّار القبور، جمال الموت، قبل الانتحار... ثمّ إنّ معظم شخصيّاته الأدبيّة تميل إلى الوحدة والانفراد، فالمصطفى في كتاب النّبيّ، وشخصيّات أخرى كلّها تفضّل الانفراد وتميل إليه. يقول جبران:"كانت أيّام كآبتي طويلة ضمن جدرانها، وأطول منها

[1]. رسائل جبران – جميل جبر. ص:55

كانت ليالي وحدتي وانفرادي."[1]

كان هذا تعريفا موجزا لحياة جبران وأهمّ أحداثها ووقائعها.فماذا إذن عن حياة نيتشه؟

[1]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة- جميل جبر. ط:1، دار الجيل، بيروت، 1994، ص:88

فريدريك نيتشه:

ولد فريدريك نيتشه[1] في الخامس عشر من شهر أكتوبر عام 1844م في بروسيا، كانت عائلته عائلة قساوسة سواء من جهة الأمّ أو الأب، الّذي كان رجلا مثقّفا وقسّا هو الآخر. نشأ نيتشه في وسط أنثويّ مع أخته الصّغرى إليزابيث فكانت تربيته رخوة مائعة، وكانت طفولته طفولة حالمة حيث توفّي والده عام 1849م. وفي السّنة المواليّة هاجرت الأسرة إلى مدينة ناومبرج الّتي أتمّ فيها نيتشه دراسته الابتدائية، أمّا دراسته الثّانويّة فقد تلقّاها في مدرسة إلبيفورتا، وكانت مدرسة ملحقة بأحد الأديرة. وبعد أن أتمّ هذه الدّراسة التحق بجامعة بون في أكتوبر 1864م ليدرس اللاّهوت والفيلولوجيا اليونانيّة القديمة، وهي الّتي تعنى بدراسة الحضارة اليونانيّة كلّها وعلى وجه التخصيص ما يتعلّق منها بالآداب واللّغة والفنّ والآثار.

وقد ورث نيتشه عن أبيه الكثير حتّى إنّه كان يعتقد أنّ حياته متّصلة بحياة أبيه برابطة سحريّة، وأنّها ليست إلّا تكرارا لهذه الحياة فأخذ عنه نزعته الدّنيّة العميقة المتأصّلة والّتي تأثّرت بها طبيعة نيتشه في طفولته تأثّرا عميقا حتّى كان أترابه في المدرسة يلقّبونه بالقسّ الصّغير، وكان يطمح في صغره أن يصير قسّيسا في المستقبل، وظلّ تأثّره بهذه النّزعة طوال أيّام حياته حتّى بعد أن أعلن الحرب على

[1]. انظر: نيتشه- عبد الرّحمان بدوي. ط:5، وكالة المطبوعات، الكويت، 1985، ص:49، 50

المسيحيّة وهاجمها أعنف هجوم وأقساه؛ وورث عنه ثانيا روح الشّفقة الّتي حاول أن يقضي عليها بكلّ ما يستطيع لأنّه وجد فيها خطرا جسيما. ثمّ ورث عنه أخيرا حبّه للموسيقى منذ أوّل عهد الطّفولة، وهو الحبّ الّذي استمرّ ملازما لنيتشه طول حياته حتّى في السّنوات الّتي كان مصابا فيها بالجنون.

هذا ما ورثه الابن عن أبيه في جزئيّاته، لكنّه ورث عنه أمرا آخر أهمّ من هذا كلّه، وهو أسلوبه في التّفكير والصّبغة الكليّة الّتي اصطبغ بها عقله وفكره، كما ورث عنه أيضا مثاليّته، وورث عن أجداده لأمّه أحساسا مرهفا بالواقع وروحا من الشكّ بإزاء الحوادث الإنسانيّة، فكأنّه إذا قد ورث عن الجانبين جانب الأب وجانب الأمّ، نزعتين متعارضتين تمام التّعارض، وهذا يفسّر روح التّناقض الّتي صاحبته طول حياته، وجعلت فكره شديد التوتّر وجعلت داخله نزاعا وصراعا بين قطبين متنافرين جمعهما في نفسه، وكان عليه أن يوفّق بينهما، وهما أبعد ما يكونان عن التّوفيق؛ إذ أنّ الفرد الّذي يشاء له القدر أن يكون نقطة التّقاطع بين هذين الخطّين الوراثيّين فرد قضي عليه بالعذاب الأبديّ في حياته وفي فكره. وأبرز ميزة لهذا الخليط هو الشكّ الّذي يجعل الجسم والنّفس على السّواء خاليين من الاتّزان والتّوازن.

كما كان لآرثر شوبنهاور[1] أعظم التّأثير في حياة نيتشه فقد ظلّ واقعا تحت تأثير هذه الشّخصيّة،

[1]. الفيلسوف الألماني (1788م، 1860م)

فكوّن فترة هامّة من تاريخ تطوّره الرّوحيّ، فعنده وجد نيتشه أحسن من تغنّى بالتّشاؤم، وأبرع من وصف آلام الحياة، وأعمق من نفذ إلى جوهرها، ووضع يده على مفتاحها. وفي هذه الحال بدأت علاقته الحميمة بريتشارد فجنر[1]، وهذا طبيعيّ ما دام أعجب بأستاذه شوبنهاور، فموسيقى فجنر تحقيق لنظريّة شوبنهاور في الفنّ باعتبارها الوسيلة الوحيدة للخلاص في الحياة ومن الحياة. فكان التقاء نيتشه بفجنر أعمق وأشدّ تأثيرا، وكان الأداة الّتي استعان بها القدر ليصنع من نيتشه عبقريّا على النّحو الّذي كان عليه. فقد غيّر مجرى حياته الرّوحيّة، وما إن عرفه حتّى بدأت شخصيّة شوبنهاور في الزّوال لأنّ صورة أخرى حلّت محلّها هي صورة فجنر هذه النّظرة الجديدة وهذا الوحي الّذي هبط عليه من فجنر هو الّذي بدا في أوّل كتاب أخرجه بعنوان نشأة المأساة عن روح الموسيقى الّذي كان إشادة لفنّ فجنر وتحليلا عميقا له، وأوّل شهادة حبّ وإعجاب قدّمها للبطل الّذي اختاره. لكن هذا الشّعور بالحبّ والإعجاب لم يلبث أن تبدّد نتيجة لعوامل أوّلها الشّعور بالّذات شعورا قويّا وذهاب إيمانه بفلسفة شوبنهاور والرّوح المسرحيّة الهزليّة الّتي أبداها في مسرح بايرويت، وهكذا تمّت التّفرقة بين نيتشه و فجنر عام 1876م. لكنّ حبّه لشخصيّته رافقه حتّى آخر أيّام حياته، ولقد أدّت هذه التّفرقة إلى صرف المعجبين عنه من أنصار فجنر كما صرفت عنه أشدّ الخلّان صلة وأقربهم إليه؛ وعلى هذا النّحو استمرّ نيتشه يفقد الأصدقاء ويبتعد عن حياة النّاس وعلاقاتهم حتّى أصبح في الأيّام

[1]. الموسيقيّ الألماني ولد عام 1813م.

الأخيرة في شبه عزلة تامّة عن العالم كلّه، ولم يعد النّاس يحفلون به ولا يقرؤون واحدا من كتبه وحتّى النّاشرون لم يعد أحد منهم يقبل أن يطبع كتبه، فاتّخذ من الوحدة وعدم إقبال النّاس عليه وحبّهم له دليلا على سموّه، ويعبّر عن ذلك في قوله:"أنا فخور بنفسي فخرا يحملني على الاعتقاد بأنّه لا يوجد من يقدر على أن يحبّني."[1] وهذا القدر الّذي حكم عليه أن يكون وحيد فحرمه من البيت والأبوّة والزّوجة، شاء له أيضا أن ينعم برفقة صديق ليس من البشر لازمه إبّان حياته كلّها ألا وهو المرض، فقد ورث عن أبيه قصر النّظر قصرا شديدا بالإضافة إلى أمراض أخرى عديدة.

أمّا بالنّسبة لحياته العاطفيّة فقد عاش نيتشه تجارب حبّ عديدة باءت بالفشل، وكان أبرزها علاقته بلوفون سالومي[2] والّتي كانت تلميذة له وطلب منها الزّواج لكنّها رفضت.

ثمّ يحلّ فبراير عام 1880م، وإذا بتطوّر هائل يحدث عند نيتشه وانقلاب ضخم، فأصبح يقبل على الحياة وصار الوجود في نظره أنشودة فيّاضة وتليه السّنوات الثّلاث الأكثر إنتاجا والّتي استمرّت من عام 1881م إلى 1884م ونعني بها تلك السّنوات الّتي كتب فيها الفجر والعلم المسرور والجزأين الأوّل والثّاني من هكذا تكلّم زرادشت وكان يشعر في أثنائه بأنّ حياته الوجدانيّة قد تضاعفت قواها مرّات ومرّات، وأنّ روحه محشوّة بالأفكار الكثيرة العميقة وكأنّ وحيا قد هبط عليه، بل هو سمّى

[1]. نيتشه - عبد الرّحمان بدوي. ص: 76

[2]. نيتشه - جيل دولوز. ترجمة: أسامة الحاج. (د.ت)، ص: 13

أحواله الرّوحيّة الّتي كان ينتج فيها إبّان تلك الفترة باسم الوحي والإلهام.

وفي نهاية 1887م بدأ الدّور الأخير من حياة نيتشه الواعيّة، وهنا بدأت ظواهر جديدة تبلغ أشدّ أدوارها ابتدءا من سبتمبر من السّنة التّالية وتنتهي بابتداء الجنون الحقيقيّ في يناير 1889م حيث بدأ يشعر بذاته شعورا قويّا حتّى أنّه أصبح يعتقد أنّه قادر على التّأثير في العالم كلّه وبدأ يكتب رسائل غريبة معبّرا فيها عن الغبطة والهناء دون أن يكون هناك سبب ظاهر أو تناسب بينهما وبين العوامل الّتي أنتجها على العكس تماما ممّا كان يبدو من رسائله في السّنوات السّابقة الّتي تمثّلت في الشّكوى سواء من مرضه أو من إهمال النّاس وعدم اكتراثهم لكتبه ولتفكيره. ومن ناحيّة أخرى ازداد نشاطه ازديادا كبيرا لم يكن معهودا من قبل، فلا تأخذ الكتب الأخيرة من وقته إلّا جزءا قصيرا، إذ تكفي للكتاب الواحد عشرة أيّام أو خمسة عشر يوما.

وإنّ نيتشه ليدين للمرض بكثير ممّا علا بحياته العقليّة وسما بها، وجعل تطوّره سريعا، وتحقيقه لرسالته أقرب وأسهل حتّى قال:"إنّ المرض هو أوّل شيء هداني سواء السّبيل."[1] فالمرض جعل منه عالما فأخفى خفايا النّفس الإنسانيّة. وإلى جانب إشادته بالمرض، نجده يشيد بالصحّة أيضا ويمتلئ في آخر أيّامه برغبة ملحّة في الصحّة والشّفاء، لكنّه لا يستطيع أن يظفر بهذه الصحّة الّتي كان يصبوا إليها، فمصيره قد قضى عليه بأن يظلّ فريسة للعلل والأمراض إلى أن غاب عن الوجود في الخامس

[1]. نيتشه - عبد الرّحمان بدوي. ص: 110

والعشرين من أوت 1900م.

أمّا فيما يتعلّق بمؤلّفات نيتشه فهي تبدأ بمؤلّفات الشّباب من 1858م إلى 1868م والّتي نشرت بعد وفاته. ثمّ أبحاثه الفيلولوجيّة من 1866م إلى 1877م. وأعقب ذلك نشأة المأساة من روح الموسيقى في عام 1870م، 1871م. ثمّ الفلسفة في عصر المأساة عند اليونان عام 1872م، 1875م والّذي نشر بعد وفاته. وفي العام 1873م ألّف تأمّلات في غير الأوان في جزئه الأوّل بعنوان دافيد شتروس، أمّا الجزء الثّاني منه ظهر عام 1874م تحت عنوان فوائد التّاريخ للحياة ومضارّه، و عنوان الجزء الثّالث من هذا المؤلّف شوبنهاور كمربّي والّذي ظهر عام 1874م، أمّا الجزء الرّابع والأخير فعنوانه ريتشارد فجنر في بايرويت وظهر عام 1876م.

وبالنّسبة لمؤلّفات المرحلة الوضعيّة النّقديّة فهي كالآتي:

نحن الفيلولوجيّون في عام 1875م ونشر بعد وفاته، ثمّ إنسانيّ إنسانيّ جدّا من العام 1876م إلى 1878م، ثمّ أمشاج من الآراء والأمثال عام 1877م، 1879م. وبعدها المسافر وظلّه في عام 1879م، ويليه الفجر من العام 1880م إلى 1881م، ثمّ العلم المرح من 1881م إلى 1882م في أربعة أجزاء.

وأخيرا مؤلّفات المرحلة الثّالثة وهي كالتّالي:

هكذا تكلّم زرادشت والّذي نشر جزؤه الأوّل في ماي 1883م، والجزء الثّاني منه في جوان وجويلية عام 1883م، والثّالث عام 1884م، وألّف الجزء الرّابع لأوّل مرّة من السّنة نفسها إلى 1885م ولكنّ نشر هذا الجزء لأوّل مرّة في عام 1892م. وفي عام 1884م ألّف مدائح ديونيزوس وما يليها.

وبعدها ألّف ما وراء الخير والشرّ من 1885م إلى 1886م، ثمّ الجزء الخامس من العلم المرح في سنة 1886م، وفي العام نفسه ألّف أصل نشأة الأخلاق الّذي يتكوّن من ثلاث مقالات. وفي عام 1888م كتب قضيّة فجنر، وأفول الأصنام، وعدوّ المسيح ونشر بعد وفاته، ونيتشه ضدّ فجنر. ثمّ هذا هو الإنسان والّذي نشر عام 1908م والّذي تحدّث فيه نيتشه عن نفسه.

كانت هذه نبذة عن حياة فردريك نيتشه لننتقل إلى الفصل الأوّل ومبحثه الأوّل الّذي يحمل عنوان نبيّ جبران فعن ماذا تحدّث جبران في نبيّه؟

الفصل الأوّل

نبـــيّ جبـــران

كان الأدب العربي في نهاية القرن التّاسع عشر ومطلع القرن العشرين يجري على سنّة التّقليد، بعد أن تقطّعت الأسباب الّتي تصله بالنّفس والحياة والمجتمع، فافتقد غايته الجماليّة، وشهد فترة من الجمود، لا يفعل ولا ينفعل لا يقتفي آثار الحياة ولا يتقدّمها، بل يحيا على هامش من همومها وأغراضها. فكان لابدّ من روح جديدة تخرجه وتنتشله من دور الجمود والتّقليد إلى دور الابتكار في جميل الأساليب والمعاني بحيث يصبح قوّة فعّالة في حياة الأمّة. تلك الرّوح الّتي ظهرت خاصّة مع مجموعة من الأدباء في المهجر أولئك الّذين ربطوا الأدب بتربة الحياة وهوائها ونورها، وبحثوا عن من سيخلّد ذاك الجيل من وجودهم فلم يجدوا غير فئة قليلة من أولئك الّذين "لمست الحياة أفواههم بجمرة جديدة، فاتّقت قلوبهم بنار ما عرفتها قلوب من حولهم من المنتقمين إلى مملكة القلم"[1].

ومن بين هؤلاء جبران خليل جبران، ذلك الشّاعر الذّي دفعته الحاجة إلى ترك وطنه قاصدا بوسطن مع أسرته، هناك حيث تعلّم اللّغة الإنجليزيّة، فانفتحت أمامه أبواب المعرفة الغربيّة من أدب ونقد وفلسفة، وكان جبران يقرأ ويهضم المادّة الّتي يقرؤها، فإذا خرجت على لسانه شعرا أو نثراً طبعها بطابعه، ولوّنها بشعوره وأحاسيسه فجاءتنا أدبا جبرانيّا مميّزا. وبدت كتاباته غنيّة بالأحاسيس، مفرطة في العاطفة... وهذا ما نلمسه في كتاب الأرواح المتمرّدة، ومهاجمته للملوك والمستبدّين، والكهنة، وهو

[1]. المجموعة الكاملة - ميخائيل نعيمة. ص: 192

ما تهاجمه الرومانسيّة أيضا. وفي الأجنحة المتكسّرة يصوّر لنا الحبّ الّذي لا ينشد اللذّة الحسيّة، فهو يقنع باللّقاء العابر والحديث البريء... وغيرها من مؤلّفاته الّتي تجلّت فيها عاطفته.

وهكذا تأثّر جبران بأساليب الغربيّين حين إطّلاعه على إنتاج بعض الأدباء وقراءته لهم، فلقد عرف ويليم بليك والدوامرسون[1] وروودان[2] ، كما اهتدى إلى فردريك نيتشه الّذي قال فيه:"أنّه كان في أغلب الظنّ أشدّ النّاس وحشة ولا شكّ أعظمهم. فلم يكتف بالخلق فقط... بل هدم أيضا ومفهوم الإنسان المتفوّق لم يكن جديدا معه، بل درجة تحقيق الإنسان المتفوّق هي الجديدة."[3] وقال أيضا :"لعلّ أعظم مرحلة في حياتي في السّنوات الحديثة كان يوم أصبح لي مفهوم جديد حول نيتشه."[4]

وما إن عرف نيتشه حتّى كاد ينسى كلّ من عرفهم قبله من كبار الأدباء فأصبح يحدّث غيره عنه وقد بعث برسالة إلى فتاة أمريكيّة تدعى أديل واطسن، يلحّ عليها أن تقرأ هكذا تكلّم زرادشت قائلا:"...بلى نيتشه جبّار وأيّ جبّار وكلّما طالعته زاد حبّك له...أرجوك أ- ر- ج- و- ك أن تقرئي هكذا تكلّم زرادشت...لأنّ هذا الكتاب في نظري من أعظم ما عرفته كلّ العصور."[5]

---

[1]. الفيلسوف الأمريكيّ (1803- 1882)

[2]. الرسّام الفرنسيّ (1840- 1949)

[3]. جبران خليل جبران في ضوء المؤثّرات الأجنبيّة - نذير العظمة. ط :1، دار طلاس، دمشق،1987 ، ص: 185

[4]. م.ن: 187

[5]. المجموعة الكاملة - ميخائيل نعيمة. ص: 152

ولعلّ ما قرأه في زرادشت أثّر في نفسه وكان سببا في ميله إلى التهكّم والثّورة على الحكّام والرّهبان، ولم تقتصر على ذلك فقط بل شملت جميع النّاس وتقاليدهم والأسس الّتي بنو عليها صرح حياتهم. وكان زرادشت ونيتشه أيضا سببا في إحساسه بغربة تفصله عن ماضيه حتّى صار يخجل منه إلى درجة أنه حين أقبل على الأجنحة المتكسّرة ليقدّمها للطّبع كاد يتراجع عن نشرها بعدما تخيّل سخريّة نيتشه منه وضحكه لو عرضها عليه. وبعد ظهورها بقليل طلب إليه نسيب عريضة جمع مقالات دمعة وابتسامة فقال:"إنّ الشابّ الّذي كتب دمعة وابتسامة قد مات ودفن في وادي الأحلام، فلماذا تريدون نبش قبره، افعلوا ما شئتم، ولكن لا تنسوا أنّ روح ذلك الشابّ قد تقمّصت في جسد رجل يحبّ القوّة والجمال، ويميل إلى الهدم ميله إلى البناء، فهو صديق النّاس وعدوّهم في آن واحد."[1] إلّا أنّ جبران الّذي تصدّى لأكبر سلطة في حضارته وهي سلطة الكنيسة ومال إلى التهكّم أدرك فيما بعد أنّ الحياة هي الأجدر باهتمامنا والأحقّ به فتكشّفت له أبعاد جديدة في هذه الحياة، وانتقل من الكتابة بالعربيّة إلى الكتابة بالإنجليزيّة، ففي حين كانت الثّورة تنصبّ على الواقع اللّبناني بعناصره الفاسدة، أصبحت الآن تتناول الإنسان بشكل عام، فجعل رسالته للعالم كلّه بدلا من أن يقصرها على وطنه لبنان أو على الشّرق.

[1]. المجموعة الكاملة - ميخائيل نعيمة. ص: 154

وقد آثر جبران الكتابة بالإنجليزيّة، ربّما لأنّه شعر آنذاك بأنّه يملك الجدارة لفعل ذلك، وأنّ العالم الّذي يتكلّم الإنجليزيّة هو أوسع وأغنى من ذلك الّذي يتكلّم العربيّة. أو لأنّه كان يريد أن يثبت ذاته في الوسط الآخر فقد قال لماري هاسكل ذات مرّة:"أنّه جائع إلى تثبيت ذاته في أمريكا."[1] فكتب جبران وبلغت شهرته الغرب والشّرق معا، وشهد فيه مارون عبّود إذ قال:"لشخصيّة أديب المهجر مميّزاتها،وعناصرها المتمرّدة، فهو شرقيّ عربيّ لم يكتب ليغرّب الشّرق بل كتب ليمشرق الغرب، ويكون له رسولاً."[2]

وقد بدا نجاح كتابات جبران الإنجليزيّة كأنّه نصر قوميّ،زحف به الشّرق على الغرب وهذه الكتب هي:المجنون، السّابق، النّبيّ، رمل وزبد، يسوع ابن الإنسان، آلهة الأرض، التّائه، وحديقة النّبيّ.

ففي المجنون تتبدّى اتّجاهات جديدة تتميّز بحدّة في التّفكير وإيجاز في التّعبير، وباستخدام للرّمزيّة، كما تتميّز بالسّخريّة البالغة.

وفي السّابق يحدّثنا جبران عن تسلسل الوجود وتتابع الحياة، أي كلّنا سابق نفسه، وما نحن عليه اليوم سيكون أساسا لما نصبح فيه غدا.

ثمّ في رمل وزبد أين يتجلّى استخدام جبران للمثل في ذاته استخداما واسعا للغاية، مختصرا به الفكرة اختصارا شديدا.

---

[1]. النّزعة الرّوحيّة في أدب جبران ونعيمة - ريموند قبّعين. دار الفكر اللّبناني، (د.ت)، ص: 89

[2]. جبران خليل جبران (مختارات ودراسات) - سهيل بديع بشروني. ص: 109

وفي يسوع ابن الإنسان يعبّر جبران عن عقيدته المغايرة للعقيدة المسيحيّة في النّظر إلى المسيح، فالمسيح ليس إلها تجسّد إنسانا، بل هو إنسان بكلّ معنى الكلمة، لكنّه بلغ أعلى مراتب الإنسانيّة سموّا وروح.

أمّا آلهة الأرض، فهو كما وصف جبران كتاباته بأنّها صادرة من جحيم الشّاعر، وفيه تظهر العبثيّة واللّعب بمصائر البشر.

ثمّ يأتي التّائه حيث تبرز شدّة الظّلام والسّخريّة المرّة، عندما يمتلئ القلب البشريّ باليأس والتّشاؤم.

وبعدها حديقة النّبيّ الّذي أراد فيه جبران أن يتحدّث عن علاقة الإنسان بالطّبيعة لكنّ الموت لم يترك له مجال، فجاءت بربره يانغ لتضيف إلى الصّفحات المعدودة الّتي كتبها جبران صفحات وفصول سبق أن كتبها في أوقات متباينة.

أمّا كتاب **النّبيّ** الّذي يعدّ رائعة جبران، وأكثر كتبه رواجا، وأهمّها على الإطلاق، والّذي كان قد كتب بعض خاطراته وهو طالب في مدرسة الحكمة، وكتبها ثانية أثناء دراسته في باريس، ثمّ وضع خطوطه العريضة بالإنجليزيّة مرّتين، يقول عنه:"أمّا النّبيّ فكتاب فكّرت به منذ ألف سنة... هو ولادتي الثّانية ومعموديتي الأولى. "[1] بالإضافة إلى أنّه غيّر عنوانه أكثر من مرّة، إلى أن أتمّه وأصدره في خريف عام 1923م كتابا صغيرا بسيط الشّكل، جميله في غلاف أسود علته صورة النّبيّ المصطفى

[1]. الشّعلة الزّرقاء (رسائل جبران إلى مي زيادة) - تقديم سلمى الحفّار وسهيل بديع بشروئي. ط:2، مؤسّسة نوفل، بيروت، 1974 ، ص: 56.

وترجم إلى أكثر من لغة وبيع منه حتّى عام 1959م مليون نسخة. وهو عبارة عن قصّة حوت ثمان وعشرين خطبة حرص فيها جبران على أن تكون كلّ كلمة يقولها أفضل من الّتي سبقتها، وقدّم أفضل ما لديه بأسلوب "يكاد يكون جديدا بنظارته، وانسجامه وجمال ألوانه واتّساقها، ووفرة أنغامه وائتلافها، مع قلّة كلامهن وقوّة الحياة النّابضة في كلّ نبرة من نبراته، وسكتة من سكتاته."[1] فجبران بلغ أقصى قدراته الفنيّة في اختيار التّشابيه والاستعارات والمجازات والرّموز، إلاّ أنّ كلماته كانت بسيطة فقد انتقى من اللّفظ أقربه وأحلاه وابتعد عن كلّ غريب، فكان يأخذ من الطّبيعة تارة مثل:البحر، النّهر، الجدول، الحقل، الأشجار، الينبوع،... ومن الحقل الدّيني تارة أخرى.مثل:الرّوح، النّفس، الهياكل، الكاهن،... وغيرها من المفردات الّتي اكتسبت كلّها مضامين جديدة في إطار الأسلوب الجبراني. فكأنّ جبران هو الّذي أوجدها بالرّغم من أنّها كانت موجودة قبلا. فهو يبدع من اللّفظة القديمة لفظة جديدة، ويتخيّل أنّ اللّفظة تحيى بنفسه أو أنّ نفسه تفكّر وتحلم بواسطة الألفاظ ولهذا جاءت ألفاظه حدسيّة روحانيّة بالرّغم من بساطتها.

أمّا عن عباراته فكانت تأخذ نوعا من الغرابة والمفاجأة ما يجعلها أنموذجا من الكتابة الجماليّة في الأدب العربي الحديث، وكانت هي الأخرى مستقاة من الطّبيعة ومن أمثلة ذلك قوله:"المحبّة تضمّكم كأغمار الحنطة، وتدرسكم على بيادرها لكي تظهر عريكم، وتغربلكم لكي تحرّركم من قشوركم،

[1]. المجموعة الكاملة - ميخائيل نعيمة. ص: 230

وتطحنكم لكي تجعلكم أنقياء كالثّلج..."[1] ومن هنا نلاحظ أنّ جبران كان يتوق إلى عالم الطّبيعة عالم المحبّة الدّائمة وقد استعان بها في معظم كتاباته.

كما تجدر الإشارة إلى أنّ جبران في النّبيّ قد تأثّر أسلوبه بآيات الكتاب المقدّس ويظهر ذلك في لهجته النّبويّة، فهو يكثر من صيغ النّداء والتعجّب والاستفهام والمناشدة وأنواع التّوكيد ومعظم ما جاء في النّبيّ يدلّ غلى ذلك. مثال قوله:"يا نبيّ الله..."[2]،

"والحقّ أقول لكم..."[3]، "لأجل هذا أباركم من أعماق قلبي."[4] كما أنّ من خصائص جبران في النّبيّ تأليفه بين المتناقضات، فقد جمع بين الخير والشرّ، بين الفرح والتّرح، بين العقل والعاطفة وغيرها وذلك يدلّ على إيمان جبران بالحياة وثقته بالمحبّة الكليّة الّتي تؤلّف بين عناصر العالم وتدعو إلى زوال كلّ المتناقضات والرّجوع إلى عالم الطّبيعة.

أمّا عن الأفكار فقد بلغ جبران في النّبيّ قمّة التألّق الفكريّ في شؤون الإنسان والكون عبر إرشادات "توراتيّة النّفس، إنجيليّة الأداء، نبويّة الطّموح."[5] فالمصطفى في النّبيّ يتّخذ صفة من اختارهم

---

[1]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة - جميل جبر. ص: 85

[2]. م. ن: 83

[3]. م. ن: 108

[4]. م. ن: 144

[5]. النّزعة الرّوحيّة في أدب جبران ونعيمة - ريموند قبّعين. ص: 89

الله، فهو لا يتكلّم بوحي من ذاته بل كأنّه يتلقّى الوحي من الله، ويترفّع عن توافه التّفاصيل المعيشيّة، ويسعى إلى إبراز المبادئ الكليّة الّتي توجّه الحياة، وتدعو إلى صفاء خلقيّ.

كما أنّه يعتمد أسلوب الوعظ والإرشاد في حديثه مع النّاس، فيناديه أهل أورفليس بذلك النّداء الّذي كانوا ينادون به السيّد المسيح عليه السّلام "يا معلّم". وبذلك كلّه ندرك عمق الأثر الّذي فرضه الكتاب المقدّس على عقل جبران، فجاء الأسلوب الجبراني يحمل سطوة التّوراة وعذوبة الإنجيل، وبما أنّه كان صادرا من نفس إنسانيّة حسّاسة إلى أعلى درجات الإحساس، فهو دليل على قدرة جبران العاطفيّة الّتي مكّنته من إرسال أحزانه وأفراحه، آلامه وآماله، ثورته ومواعظه أفكاراً وأشواقاً حيّة، "أكسبها الخيال فنّية حادت باللّغة عن طبيعتها الجامدة وجعلتها لغة صور ورموز واستعارة ومجاز."[1] وقد نافست تلك الصّور المبتكرة رسوم لوحاته جمالا ودقّة، ولئن كانت هذه الصّور مهمّة بذاتها فدورها الأهمّ هو الكشف عن المعنى الرّوحي المحتجب وراءها. فكثيراً ما استخدم جبران المجاز إذ أنّ اللّفظ في النّبيّ ليتخلّى عن معناه القريب، فينقل الأشياء من حدودها المرسومة في الطّبيعة إلى المجاز المتعدّد الوجوه الممتلئ بالأفكار والمشاعر ومن أمثلة ذلك قوله:"إنّ الرّجل المنتصب والرّجل السّاقط على الأرض هما بالحقيقة رجل واحد واقف في الشّفق بين ليل ذاته الممسوخة ونهار ذاته

[1]. المجموعة الكاملة - ميخائيل نعيمة.ص: 239

الإلهيّة."[1] وبالفعل قد بلغ جبران الذّروة فجاءنا النّبيّ "وهجا خياليّا متوقّداً"[2] على حدّ تعبير نعيمة، وجعل لرسالته تلك الطّلاوة الّتي حببت أمريكا الماديّة بالروّحانيّة الشّرقيّة."[3]

بالإضافة إلى ذلك استعماله للرّمز، والغرض من ذلك أن يترفّع بالنّاس عن الحياة الماديّة، وأن يبعث فيهم روحانيّة تحقّق لهم السّعادة في ظلّ المعرفة والمحبّة والسّلام. وجبران أدّى ما توصّلت إليه عبقريّته ومواهبه بقالب فنّي رائع "اشتقّ كلمته من ألحان نفسه، ولوّنها بشعوره وأحاسيسه، فجبران كان شاعرا بنثره إذا خرجت الكلمة على لسانه طبعها بطابعه وكانت موسيقى الرّوح عنده قبل موسيقى الأذن"[4] فكان يسير على نغم متّصل بالإيقاع، متمثّل في حركة العبارة الواحدة، فالنّبيّ يتميّز بالتّقطيع الشّعريّ الّذي يبرز فيه "امتداد المقاطع وفق اختلاف المعنى وضرورة التّنويع"[5] كما قال روز غريب، فحين نقرأ إحدى مقطوعاته فإنّنا نسمع نغما بقدر ما نفهم معنى، ومهما حاولنا أن نقض على موضع الإيقاع والنّغم فإنّنا لا نعثر عليه، لأنّه ينبعث من كلّ حرف لا من حرف واحد وذلك يقودنا إلى الاعتقاد بأنّ النّغم هو نغم نفسيّ ونوع من التّآلف الدّاخليّ بين اللّفظ وحالته النّفسيّة الّتي يعانيها ولعلّ هذه الموسيقى هي الّتي تقرّبه من روح الشّعر وتجعله أكثر قدرة على الإيحاء والتّأثير.

---

[1]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة - جميل جبر. ص: 110

[2]. المجموعة الكاملة - ميخائيل نعيمة. ص: 239

[3]. النّزعة الرّوحيّة في أدب جبران ونعيمة - ريموند قبّعين. ص: 92

[4]. م. ن: 94

[5]. م. ن: 95

وبهذا كان أسلوب جبران مدهشا تميّزت عباراته بالحداثة فاستفاد من الطّبيعة وعناصرها من ماء وهواء وتراب ونار ليعبّر عن عالمه الوجداني تعبيرا حيّا. وربّما كان لأفكاره العميقة وعباراته الموحيّة والأفق الإنسانيّ عنده الفضل في تفرّد أسلوبه في النّبيّ. هذا فيما يخصّ أسلوب جبران في النّبيّ.

أمّا عن **المضمون** فكتاب النّبيّ يتحدّث عن رجل سمّاه جبران المصطفى، وجعل روحه نيّرة إلى حدّ أنّ سامعيه كانوا يخاطبونه:"يا نبيّ الله"[1] وفي اختيار الاسم وحده ما يدلّ على الاحترام وكما يقول نعيمة:"فكلمة تسمعها من فم إنسان عليه وشاح النبوّة لأكبر وقعا من الكلمة نفسها تسمعها من رجل عاديّ."[2] غير أنّ جبران عرف كيف يخلع وشاح النبوّة على مصطفاه فأبرزه رجلا غريبا من مدينة أورفليس[3] والّتي قضى فيها اثنتي عشرة سنة، ينتظر سفينته القادمة لتعود به إلى مسقط رأسه، وحينما رأى سفينته مقبلة في الضّباب تضاربت العواطف في قلبه بين فرحة ولذّة الخلاص من الغربة وآلام الوداع، فتساءل في نفسه أيرحل دون أن يقدّم شيئا لأهل تلك المدينة الّتي أحبّ أهلها وتعلّق بهم وهم أحبّوه أيضاً، وبعدما رأوه أدركوا أنّه مودّع لهم فتركوا كلّ ما بأيديهم مسرعين إليه يترجّونه للبقاء عندهم، وهو صامت والدّموع تملئ عينيه، فسار معهم إلى ساحة كبيرة وهناك خرجت امرأة تدعى المطرة وهي المرأة العرّافة الّتي كانت أسبق النّاس إلى اكتشافه والإيمان به حين لم يكن قد مرّ

---

[1]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة- جميل جبر. ص: 83

[2]. المجموعة الكاملة - ميخائيل نعيمة. ص: 227

[3]. وهي اسم مشتقّ من اسم الدّيانة الأورفيّة الإغريقيّة الأصل.

عليه في مدينتهم إلاّ يوم واحد. هي تعلم أنّ المصطفى لن يرجع في قراره لأنّها تدرك شوقه العظيم إلى أرض تذكاراته ومسكن أمانيه الكبرى لذلك طلبت منه أن يحدّثهم قبل الرّحيل عن أنفسهم وما عرفه بالوحي من كلّ ما هو بين الولادة والموت.

وهكذا ينفتح المجال للمصطفى حتّى يعبّر لسامعيه عن علاقاتهم ببعضهم بعض ومع الحياة، لا كما تمكّنوا هم من رؤيتها بأعينهم المقنّعة بالأوهام، بل كما استطاع هو أن يراها بعين روحه الصّافية في عالم الرّوح الصّافي. فجبران أودع في كتابه خلاصة آرائه في الحبّ، والزّواج، والأولاد، والبيوت، والثّياب، والمساكن، والعطاء، والغذاء، والعمل، والفرح والتّرح، والجرائم والعقوبات، والشّرائع، والحريّة، والعقل والعاطفة، والألم، ومعرفة النّفس، والتّعليم، والصّداقة، والحديث، والزّمان، والخير والشّر، والصّلاة، واللّذة، والجمال، والدّين، والموت، والوداع. وبعد كلّ ما مرّ به من تجارب ومصائب انتهى إلى أنّ الحبّ بين النّاس هو شريعة الحياة، عنده يلتقون وأمامه يتساوون، وعلى أعتاب بابه يزول ما بينهم من فوارق، وتنتهي ما بينهم من خصومات، وعن الحبّ تتفرّع جميع مظاهر الحياة.

فالعمل أساسه الحبّ، كذلك الدّين أساسه الحبّ، والحريّة، والزّواج، وكلّ رباط بين القلوب والعقول والضّمائر، ومشكلات الوجود جميعا وما بينها من مراحل التطوّر ترجع في نظر جبران إلى أصل واحد يفسّر لنا ذلك السرّ المختفيّ وراء هذا الوجود، ألا وهو الحبّ الّذي يمحو الذّوات الفرديّة ويجعلها في الذّات الكليّة.

فعلا لقد أدرك جبران حقيقة الإنسانيّة جمعاء ووحدتها وعبّر عن ذلك في مواضع مختلفة من كتابه، وقد ذكرنا فيما سبق أهمّ موضوعات الّتي تحدّث عنها جبران في نبيّه دون أيّ شرح أو تبسيط وبما أنّها كثيرة فلا نستطيع شرحها كاملة ولذلك اخترنا أهمّها وهي كالآتي:

المطرة:

هي المرأة العرّافة الّتي كانت أسبق النّاس إلى اكتشاف المصطفى وأوّل من آمن به، والّتي أدركت أنّه لن يرجع في قراره بالعودة إلى وطنه فسألته أن يخطب فيهم قائلة:"...نسألك قبل أن تفارقنا، أن تخطب فينا وتعطينا من الحقّ الّذي عندك ونحن نعطيه لأولادنا...وهكذا يثبت كلامك فينا على مرّ العصور."[1]

المحبّة:

أشرف جبران بخياله على الحياة فرأى جوهرها واحد ورأى النّاس شركاء في هذا الجوهر، "لا يتميّز واحدهم عن الآخر إلاّ بقدر ما أدرك الواحد ذلك الجوهر وجهله الآخر."[2] وهذا الجوهر يتمثّل في المحبّة، فجبران إذ يتحدّث عنها يقول:"كلّ هذا تصنعه بكم المحبّة، لكي تدركوا أسرار قلوبكم، فتصبحوا بهذا الإدراك جزءاً من قلب الحياة."[3] ويقول أيضا:"...وأنت إذا أحببت فلا تقل إنّ الله في

---

[1]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة - جميل جبر. ص: 83

[2]. المجموعة الكاملة - ميخائيل نعيمة. ص: 231

[3]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة - جميل جبر. ص: 86

قلبي، بل قل بالأحرى أنا في قلب الله."[1] لقد اعتبرها جبران رأس الفضائل، فلولاها لما تمكّن المرء من جعل ذاته تتّسع لتصير ذاتا كبرى أي تشمل البشريّة جمعاء. ومن هنا نلاحظ كيف تبدّلت نزعة جبران فبدلا من الخطب الّتي تميّزت بالحقد، نلمح هدوءاً ما عهدناه في جبران الثّائر والمتمرّد ويمكن أن نلمح هذا التبدّل في قوله:"أن يجرحك إدراكك الحقيقيّ للمحبّة في حبّة قلبك، وأن تنزف دماؤك وأنت راض مغتبط."[2] وعلى ما يبدو فإنّ جبران أحبّ الألم لأنّه يقرّبه إلى نفسه، فغدا يتعبّد المحبّة ويدعو لها.

الزّواج:

لم يرد جبران أن تستغلّ فكرة الزّواج بصيرورتها جسدا واحداً، كي لا يتضايق الواحد على حساب الآخر، فالأزواج برأيه يرون بعضهم أكثر بكثير ممّا ينبغي أن يكونوا، فيشير بأن يستقلّ الزّوج عن زوجته وينفرد، شأن "أوتار العود الّتي يقوم كلّ واحد منها وحده ولكنّها جميعا تخرج نغما واحدا."[3] ينصحهما أن يعيشا كشخصين ولا يحاولا أن يكونا شخصا واحدا، وأن يعيش كلّ منهما في الغالب في غرفة مستقلّة وذلك كي لا يستعبد أحدهما الآخر. ثمّ يقول:"ليملأ كلّ منكم كأس رفيقه، ولكن لا

[1]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة - جميل جبر. ص: 86

[2]. م. ن: 86

[3]. م. ن: 89

تشربوا من كأس واحدة، أعطوا من خبزكم كلّ واحد لرفيقه، ولكن لا تأكلوا من الرّغيف الواحد."[1] وقد شرح كلامه هذا لماري هاسكل قائلا:"أعني بقولي أن لا يحاول أحد الزّوجين أن يحيا حياة رفيقه نفسها فذلك عينه ما سيبدآن به، لينتهيا بكره واحدهما الأخر، والعيش منفصلين حتّى تحت السّقف الواحد."[2]

ويضيف "أنّ الاتّصال المستمرّ يحطّم الزّواج، إذ لابدّ من فترة يستريح واحدهما من الآخر."[3] كما يدعوهم أن يتركوا مجالا لرياح السّماء ترقص فيما بينهم... "لأنّ عمودي الهيكل يقفان منفصلين والسّنديانة والسّروة لا تنمو الواحدة منهما في ظلّ رفيقتها."[4]

الأولاد:

يتجلّى إيمان جبران بالحياة العادلة، السّعيدة بذاتها، السّاعية إلى تكاملها ومثاليّتها، ففي حديثه عن الأولاد يقول:"إنّ أولادكم ليسوا أولادا لكم أنّهم أولاد وبنات الحياة المشتاقة إلى نفسها."[5] والحياة كما يفهمها جبران في النّبيّ لا تقف عند الحدود الاجتماعيّة والأخلاقيّة وإنّما تنطوي على دلالة ميتافيزيائيّة، وهي أشبه بنوع من الحكمة الّتي تنظّم العالم وتسوقه بمحبّة نحو الخير. لقد قال أنّ أبناء

---

[1]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة – جميل جبر. ص: 87

[2]. النّزعة الرّوحيّة في أدب جبران ونعيمة - ريموند قبّعين. ص: 328

[3]. م. ن: 328

[4]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة - جميل جبر. ص: 89

[5]. م. ن: 89

النّاس هم أبناء الحياة ومعنى ذلك أنّ الحياة هي الّتي توجّههم وتدرّبهم ولا تتخلّى عنهم، فليس ثمّة ظلم أو تخلٍّ بل أنّ ما يتوهّمه الإنسان شرّاً وضرراً، هو في حكمة الحياة نعمة وخير. "ويبدو أثر ويليم وردزورث[1] واضحا إذ يعتبر أنّ الطّفل يعي بذاكرته المجد الإلهيّ."[2] وإيمان جبران بالحياة وغاياتها الرّوحيّة هو الّذي أدّى به إلى الشّعور بالمسالمة مع الأوضاع الاجتماعيّة والأخلاقيّة.

العـطاء:

نجد جبران يحدّد أنواعه ويفضّل ذلك الصّادر من النّفس فيقول:"هناك الّذين يعطون ولا يعرفون معنى للألم في عطائهم، ولا يتطلّبون فرحا، ولا يرغبون في إذاعة فضائلهم، هؤلاء الّذين يعطون ممّا عندهم كما يعطي الرّيحان عبيره العطر في ذلك الوادي. بمثل أيدي هؤلاء يتكلّم الله، ومن خلال عيونهم يبتسم على الأرض."[3] وذلك يعني أنّ من يعطي دون منّه يقترب من الحياة ومن الله أيضا. كما أنّ العطاء لا يؤدّي إلى الاقتراب من الله إلاّ لأنّه تجسيد للمحبّة الكاملة. وأيمان جبران بالحياة هو نتيجة إيمانه بالله، لأنّ الله هو الّذي خلق الحياة ونظّمها.

---

[1]. الّذي ولد عام 1770م وتوفّي عام 1850م

[2].بين نعيمة وجبران - طنسي زكا. ط:1، مكتبة المعارف، بيروت، 1988، ص: 76

[3]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة - جميل جبر. ص: 92

العـــمل:

يتساءل جبران عن العمل المقرون بالمحبّة ثمّ يجيب فيقول:"هو أن تحوك الرّداء بخيوط مسحوبة من نسيج قلبك، مفكّراً أنّ حبيبك سيرتدي ذلك الرّداء، هو أن تبني البيت بحجارة مقطوعة من مقلع حنانك...، هو أن تضع في كلّ عمل تعمله نسمة من روحك...، أجل إنّ العمل هو الصّورة الظّاهرة للمحبّة الكاملة."[1] وجبران هنا يبتعد عن الماديّة فالعمل خدمة للحياة ومحبّة للآخرين فالإنسان لا يعمل كي يكسب رزقا أو لينال معرفة لأنّ العمل هو مظهر من مظاهر العبادة، يقرّبنا إلى الله وإلى حقيقة ذواتنا وحقيقة السّعادة.

الفرح والتّرح:

أدّى إيمان جبران بحكمة الحياة، وثقته بالمحبّة الكليّة إلى اعتقاده بأنّ المتناقضات الظّاهرة لا وجود حقيقيّ لها، وإنّما الإنسان هو الّذي أوجدها وقرّرها وآمن بها والسّبب في ذلك بالنّسبة لجبران يعود إلى عجز الإنسان عن النّفاذ من المظهر إلى الجوهر، فالحياة إذن عادلة تقتضي العدالة في النّاس والخصام الظّاهر بين القيم والعناصر لا يعبّر عن حقيقة الحياة فليس ثمّة خصام بين الفرح والتّرح الّذي يقول جبران:"أنّهما توأمان لا ينفصلان يأتيان معا، ويذهبان معا، فإذا جلس أحدهما منفردا على مائدتكم،

[1]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة – جميل جبر. ص: 98،99

فلا يغرب عن أذهانكم أنّ رفيقه يكون حينئذ مضطجعا على أسرّتكم."[1] وجبران يوفّق بينهما ربّما لأنّ ذلك كان نتيجة لإحساسه بالاتّفاق العميق في روح الحياة ذاتها، فهما مظهران مختلفان لذات واحدة.

الخير والشّرّ:

كما جمع جبران بين الفرح والتّرح نراه كذلك يزيل التّناقض بين الخير والشّرّ ويجعلهما يعيشان في قلب الحياة والمجتمع. يقول:"الشّرّ هو بعينه الخير المتألّم آلاما مبرّحة من تعطّشه ومجاعته."[2]

العقل والعاطفة:

وعنهما يقول جبران:"إنّ العقل والعاطفة هما سكّان النّفس وشراعها وهي سائرة في بحر العالم."[3] أي أنّهما مقترنتان ببعضهما البعض فإذا غاب أحدهما فإنّ سفينة النّفس لا تستطيع أن تتابع سيرها، كما يضيف أيضا:"أرغب أن تعنوا بالعقل والهوى عنايتكم بطيفين عزيزين عليكم، فإنّكم لا تكرمون الواحد أكثر من الثّاني، لأنّ الّذي يعتني بالواحد ويترك الآخر يخسر محبّة الاثنين."[4] وهكذا يمضي جبران في توحيد المتناقضات حتّى يغمر الوجود بنوع من البهاء الرّوحيّ ويخيّل له أنّ الحياة عمل ناجح

---

[1]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة – جميل جبر. ص: 101

[2]. م. ن: 125

[3]. م. ن: 115

[4]. م. ن: 116

متآلف منسجم. "فنبيّ جبران يمثّل العهد الجديد الّذي تهيمن عليه المحبّة من جهة وتتوازن فيه المتناقضات."[1]

الجرائم والعقوبات:

إذا كان النّاس يعتبرون الآثم أو المجرم غريبا ودخيلا بينهم وينبذونه، فإنّ نظرة جبران له مختلفة فهو لا يفصل بين المجرم والبريء يقول:"لا تستطيعون أن تضعوا حدّا فاصلا بين الأشرار والصّالحين أو الأبرياء والمذنبين."[2] ويرى أنّ الصّالح ليس بريئا من عمل المجرم يقول:"لا يستطيع البارّ أن يتبرّأ من أعمال الشرّير ولا الطّاهر النّقيّ اليدين من قذارة المدنّسين. "[3] كما "لا يستطيع فاعل السّوء بينكم أن يقترف إثماً بدون إرادتكم الخفيّة ومعرفتكم الّتي في قلوبكم."[4] وبذلك فهو يشرك البريء في الإثم مع المجرم الّذي خذله إيمانه، وتخلّت عنه الإرادة الجماعيّة فسقط في هاوية نفس، إنّه البريء ذاته متأرجحا بين النّور والظّلام يقول:"في مثل هذا النّور تعرفون أنّ الرّجل المنتصب والرّجل السّاقط على الأرض هما بالحقيقة رجل واحد واقف في الشّفق بين ليل ذاته الممسوخة ونهار ذاته الإلهيّة."[5] وهكذا

---

[1]. جبران خليل جبران في دراسة تحليليّة تركيبيّة لأدبه ورسمه وشخصيّته- فؤاد غازي براكس. دار النّسر الملحق، بيروت، 1973، ص:264

[2]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة - جميل جبر. ص: 109

[3]. م. ن: 108

[4]. م. ن: 108

[5]. م. ن: 110

يتعانق البريء في النّهاية مع المجرم في ذات واحدة ممزّقة تسعى إلى التحرّر من الواقع البشع إلى المقام الطّاهر.

معرفة النّفس:

يصف جبران النّفس بأنّها لا متناهيّة فيقول:" والكنز المطمور في أعماقكم غير المتناهية سينقب في ساعة لا تعلمونها وتفتح أبوابه أمام أعينكم."[1] كما أنّنا لا نستطيع تعريفها أو تفسيرها لذلك فإنّها لا تقاس بمقياس محدود. والإنسان مهما استطاع أن يدرك حقيقة من الحقائق فهي ليست الحقيقة بأكملها، يقول جبران:"ولا تقل في ذاتك قد وجدت الحقّ، بل بالأحرى قد وجدت حقّا."[2] إذن فالنّفس بالنّسبة لجبران شيء من المستحيل تحديده أو معرفته، لأنّ النّفس بحر لا وزن له ولا قياس على حدّ تعبير جبران.

التّعليم:

وعن المعلّم يقول جبران بأنّه لا يستطيع أن يعطي شيئا من الحكمة بقدر ما يغمر النّاس بعطفه ومحبّته وإيمانه، وأنّ ما من أحد له القدرة بأن يكشف عن معرفة الإنسان الّتي تكمن بداخله وهو غافل عنها. فالفلكيّ لا يقدر أن يعطي معرفته بالرّغم من أنّه يستطيع أن يطلع غيره شيئا ممّا عرفه

---

[1]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة – جميل جبر. ص: 119

[2]. م. ن: 119

عن نظام السّماء، والرّياضيّ كذلك لا يمكنه أن يمنح معرفته ولو استطاع أن يوضّح بعض الموازين والمقاييس وغيرها. أيضا الموسيقيّ لا يقدر أن يهب للنّاس الأذن الّتي تضبط النّظام في النّغم ولا الصّوت الّذي بواسطته يوجد التّآلف في الألحان. ومعنى ذلك أنّ كلّ واحد متفرّد بمعرفته، كذلك يجب عليه أن يكون متفرّدا في معرفته لله وإدراكه لأسرار الأرض.

الصّـــــداقة:

"هي تجاذب روحيّ بين شخصين لا يحتاجان معه إلى الألفاظ والعبارات لتوضيح الأفكار والتّمنّيات الّتي يشتركان في قطف ثمارها."[1] فالصّديق هو كفاية الحاجة "هو حقلك الّذي تزرعه بالمحبّة وتحصده بالشّكر، هو مائدتك، هو موقدك، لأنّك تأتي إليه جائعان ويسعى وراءه مستدفئا"[2] فهو أنيس الوحدة وإليه يلجأ النّاس في العزلة ساعات الفراغ يقول جبران:"اسع إلى الصّديق الّذي يحيي أيّامك ولياليك."[3] كما أنّ على الإنسان أن يقدّم أفضل ما لديه لصديقه دون أن ينتظر منه شيئا لأنّ الصّداقة ليست فرصة للنّفعيّين. يقول جبران:"ولا يكن لكم في الصّداقة من غاية ترجونها غير أن تزيدوا في عمق نفوسكم."[4]

---

[1]. المجموعة الكاملة - ميخائيل نعيمة. ص: 352

[2]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة - جميل جبر. ص: 121

[3]. م. ن: 123

[4]. م. ن: 124

فالمصطفى ينظر إلى الصّديق نظرة تتسامى عن المصلحة الشّخصيّة، وتترفّع عن الأنانيّة، وإنّ التّعاليم الجبرانيّة الّتي تدعو إلى المحبّة تدعو الصّديق لأن يجعل خير ما عنده لصديقه:"ليكن أفضل ما عندك لصديقك."[1]

اللذّة:

هي عند جبران انعتاق وتحرّر من القيود، حيث شبّهها بالزّهرة الّتي تتفتّح ليظهر ما بداخلها للوجود. وقد قرنها بالحريّة ذلك لأنّه عانى في لبنان من الظّلم والاستبداد وقمع الحريّات ما عاناه، وحين انتقل إلى ديار الغربة استطاع أن يحي تلك الحريّة الّتي حرم منها. وقد قسّمها إلى ثلاثة أقسام: لذّة مقترنة بالجمال والّتي يمثّلها الشّباب، ولذّة مقترنة بالقبح والّتي يمثّلها الشّيوخ أولئك الّذين يتذكّرون لذّاتهم آسفين، ولذّة ثالثة لا هي مقترنة بالجمال ولا بالقبح، ويمثّلها فريق ليسوا لا شبابا ولا شيوخا، لم يفتّشوا عنها ولم يتذكّروها، وإعراضهم بالنّسبة لجبران هو لذّة في أنفسهم. كما يربطها بالموسيقى إذ يقول:"إنّ جسدك هو قيتارة نفسك، وأنت وحدك تستطيع أن تخرج منها أنغاما فتّانة."[2] ويربطها أيضا بالطّبيعة حيث يقول:"ولعلّك تسأل في قلبك قائلا:...اذهب إلى الحقول وهناك تتعلّم أنّ لذّة

---

[1]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة - جميل جبر. ص: 123

[2]. م. ن: 132

النّحلة قائمة في امتصاص العسل من الزّهرة ولكنّ لذّة الزّهرة أيضا تقوم بتقديم عسلها للنّحلة."[1]

وهكذا جعل جبران اللذّة متكاملة وإن كان يميل إلى اللذّة المقترنة بالجمال.

عالم الطّبيعة وعالم المدينة:

تخلّى جبران عن الدّعوة إلى العنف والتمرّد والثّورة، ودعا إلى المحبّة الدّائمة ولكنّه لم يتخلّ عن شعوره بفساد المدينة وظلّ يعاني حنينا إلى عالم الطّبيعة، وعالم الإنسان السّعيد غير محسّ بحدود الخير والشّر والحقّ والباطل والصّراع بين العقل والعاطفة.

هذه النّتيجة الّتي أدركها بعد أن انتفت بالنّسبة لديه جميع المتناقضات هي النّتيجة نفسها الّتي كان يحلم بأن يعيد الإنسان إليها في الطّبيعة المتوحّدة، كما يقول في حديثه عن المساكن:"أودّ لو كانت الأودية شوارع لكم، ومسالك التّلال الخضراء أزقّة تطرقها أقدامكم عوضا عن أزقّتكم وشوارعكم القذرة ويا ليتكم تنشدون بعضكم بعضا بين الدّوالي والكروم ثمّ تعودون حاملين عطر الأرض في طيّات أثوابكم"[2] ذلك يعني أنّ جبران كان يتوق إلى الأودية والتّلال رمز الطّبيعة والحياة البسيطة بدلا من الشّوارع والأزقّة. ويبدو أنّه قد ضاق ذرعا بعالم المدينة وكان يشتاق إلى الغابات بما فيها من أشجار وعطور. كما يتساءل عن ما يمكن للإنسان إيجاده في بيت المدينة فيقول:"ماذا تملكون في هذه البيوت؟ هل عندكم السّلام، وهو القوّة الصّامتة الّتي تظهر ذاتكم الشّديدة العزم المستترة في

---

[1]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة –جميل جبر. ص: 132

[2]. م. ن: 102

أعماقكم؟ هل عندكم الجمال الّذي يرتفع بالقلب من مصنوعات الخشب والحجارة إلى الجبل المقدّس؟... أم عندكم الرّفاهيّة فقط، الرّفاهيّة الّتي تدخل البيت ضيفا، ثمّ لا تلبث أن تصير مضيفا فسيّدا عنيفا؟"[1]

فالسّلام بالنّسبة لجبران لا يسكن بيوت الحضارة ولا الجمال الّذي يرتفع بالإنسان عن المادّة حيث تتجلّى الحقيقة. وبذلك أدرك أنّ الرّفاهيّة تستعبد إنسان العصر الحديث وتدفعه إلى الجشع والطّمع والأنانيّة. كلّ هذا يعانيه إنسان المدينة الّذي تخلّى عن الطّبيعة هناك حيث يستطيع العيش بسلام.

وهكذا يظهر سعي جبران لإعادة الإنسان إلى أصله وذلك باستنطاق الطّبيعة، فهو وإن نزل في نيويورك بين ناطحات السّحاب، فإنّ نفسه تعيده إلى تلال لبنان، إلى نهارها وشمسها، ليلها ونجومها وسواقيها وكلّ ما فيها؛ فهو يظلّ ابن لبنان وطبيعتها وحنينه لها يظهر في كثير من كتاباته.

المـــــوت:

لقد جعل جبران الموت مقترنا بالحياة فقال:"إذا رغبتم الحقيقة في أن تنظروا روح الموت، فافتحوا أبواب قلوبكم على مصاريعها لنهار الحياة، لأنّ الحياة والموت واحد."[2] فالموت في نظر جبران هو بمثابة تحرير للنّفس وانعتاقها من القيود بحيث تصبح حرّة طليقة تسعى إلى خالقها من دون أيّة عوائق.

---

[1]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة - جميل جبر. ص: 102،103

[2]. م. ن: 136

يقول:"وهل انقطاع التّنفّس غير تحرير النّفس من دورانه المتواصل، لكي يستطيع أن ينهض من سجنه ويحلّق...من غير قيد ولا عائق."[1]

كانت هذه أهمّ الخطب الّتي جاءت في النّبيّ بقي علينا الآن أن نشير إلى رسوماته.

رســـــومات النّبيّ:

وضع جبران للنّبيّ اثني عشر رسما، عشرة منها بالأدهان المائيّة واثنان بقلم الرّصاص، وهما وجه المصطفى في أوّل الكتاب واليد المبدعة في آخره. أمّا وجه المصطفى فأوّل شيء يشدّ الانتباه فيه عيناه الواسعتان اللّتان تبدوان كأنّهما لا تنظران إلى شيء غير أنّهما على ما يبدو تبصران ما هو أدقّ من الأشياء، ثمّ فمه بشفتيه المتلاصقتين اللّتان تبدوان وكأنّهما متورّمتان، يتخلّلها حزن وصمت طويل. وعلى ذلك الوجه كلّه بكلّ ما تحمله تقاطيعه من قوّة يظهر نوع من الكآبة القصوى، أمّا الشّعر فينزل على جانبيّ الوجه تحت الذّقن بنعومة وخفّة ينسي النّاظر إليه أنّه شعر وتجعله يبدو كهالة من نور. يقول ميخائيل نعيمة في وصف وجه المصطفى:"هو وجه إذا نظرت إليه طويلا تراه حلبة صراع عنيف بين ما اختفى تحته من أهواء الأرض وأشواق السّماء وترى الغلبة بجانب السّماء."[2]

أمّا اليد المبدعة فهي يد منبسطة بها عين في وسط الكفّ تحيط بها دائرة من الأجنحة المتلاصقة بأطرافها تشبه الزّوبعة، وحول الأجنحة دوائر مغمورة بالضّباب والّذي تقيّده دائرة من الأجسام

---

[1]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة – جميل جبر. ص: 138

[2]. المجموعة الكاملة - ميخائيل نعيمة. ص: 233

البشريّة المتداخلة فيما بينها، وهي ترمز إلى القوّة المدبّرة الّتي تسيّر الكون. يد تعمل وبصيرة ترى وحولها الكائنات حلقات متراكبة تدور في فلكها، وبحسب اعتقاد نعيمة أنّ جبران استوحى هذه الفكرة من يد الله الّتي صنعها رودان. ولكنّه وإن أخذ منها الفكرة الأساسيّة، إلّا أنّه أعطاها من فنّه ما جعلها تستقلّ به عن يد رودان.

أمّا عن بقيّة الرّسوم فقد جاءت بمثابة تعليق للمتن أو إثراء له، حمل رموزا بعيدة لا يستطيع الإنسان العادي فهمها. إضافة إلى الانسجام الفنيّ البديع فيه من النّعومة ما يصل إلى حدّ الاسترخاء. أمّا عن القوّة الرّمزيّة والفكرة الّتي تعبّر عنها، فيقول نعيمة:"لا يسعك إلّا أن تكبر الخيال الّذي تخيّلها واليد الّتي أبرزتها أمامك أشكالا محسوسة."[1] فمثلا يصوّر جبران الألم بامرأة مصلوبة على صدري رجلين تحبّهما أو يحبّانها معا، فلا تستطيع أن تقسم قلبها نصفين وكلاهما لا يرض بأقلّ من قلبها كلّه، وهو بذلك يصف آلام الحبّ الّذي لا يجد ألما أكبر منه.

هذا فيما يتعلّق بنبيّ جبران فماذا عن زرادشت نيتشه؟

[1]. المجموعة الكاملة - ميخائيل نعيمة. ص: 234

الفصل الثّاني

زرادشت نيتشه

هيأت الحرب الأوربّية الفرصة لهذا الوطن كي يثور ثورته السّياسية، كما كانت هذه الحرب الحاضرة فرصة دفعته إلى القيام بثورته الرّوحية الّتي كان في أشدّ الحاجة إليها على ما ألف من قيم، وما اصطلح عليه حتى الآن من أوضاع. وفي أشدّ الحاجة إلى أن يطرح هذه النّظرة القديمة في الوجود وفي الحياة، كي يضع مكانها نظرة أخرى، كلّها قوّة وكلّها حياة، وفيها تعبير واضح عن كل ما يخالج ضميره من مطامح نحو السّمو، وشعور حيّ نابض بالنّزوع إلى تطّور روحي هائل، تصّاعد فيه قواه، خالقة تبدع في كلّ طور من أطوار هذا التّصاعد صورا للوجود سامية، وقيما للحياة جليلة عالية، في الإيمان بها إيمان بإمكان تنشئة جيل من أبنائه عظيم، وفي تحقيقها تحقيق لنوع من الحضارة الزّاهرة.

وليس من شك أيضا في أنّ الشعور بهذه الحاجة قائم في نفوس أبنائه، واضحا حينا، غامضا في معظم الأحيان، فهم لم يعودوا يمنحون القيم القديمة السّائدة من الثّقة والإيمان ما كانت تمنح من قبل، واللّوحة الّتي كانت مرتسمة في مخيلة آبائهم للحياة السّامية والوجود الممتاز، قد بهتت ألوان الكثير من أجزائها، وانحسر عنها الضوء، وأصبحوا ينكرون اليوم ما كان أسلافهم يحتفلون له أشدّ الاحتفال، ويتبرّمون بأشياء كانت من قبل موضع التّقديس، وكانت نتيجة هذا كلّه أن أصبحت الطّبقة الممتازة من أبناء هذا الجيل تندفع نحو الشّك في قيمة الكثير من المقدّس من الأشياء. فهذه الطّبقة على حال من الشّك قد يبلغ عند البعض درجة اليأس و القنوط، وفي شيء من القلق قد يصل حدّ العذاب. وهي من أجل هذا كلّه في حاجة إلى اكتشاف نظرة في الوجود جديدة، تؤمن بها و تحاول تحقيقها في

الحياة. حيث لا بدّ لهذه النّظرة الجديدة أن تكون متّفقة مع أحوال العالم الحاضر، محقّقة لمقتضيات هذا العصر، باذلة جهدها في التّوفيق بين متناقضاتها، وفي حلّ ما تستطيع من مشكلاته. فلكي نضمن إذا لهذه النّظرة الجديدة الحياة، لا مناص لنا من أن نجعلها شاملة تواجه كلّ مشاكل هذا العصر بكل ما فيه من إشكال وتعقيد. أمّا هذه الحلول السّاذجة الهيّنة الّتي تحلّ مشاكل العصر حلاّ وهميّا، بالفرار منها أو بإلغائها، فلا نفع فيها ولا غنى، بل فيها الضّرر كل الضّرر والخسران كل الخسران.

ومن أجل التمهيد لهذه النّظرة، اخترنا من موضوعات الفكر الأوربّي ما يمثّله أحسن تمثيل، ويعبّر عن سموّه أصدق تعبير، فاخترنا الفلاسفة والمفكرين والشعراء الفلاسفة، ومن هؤلاء جميعا لم نختر إلّا أقدرهم على الإلهام و إثارة التفكير وأقربهم إلى روح العصر، وأشدّهم عناية بمشاكل الإنسانية الحقيقة، وأحرصهم على أن يكون فكرهم حيّا بنبض بدماء الحياة وهو **فريدريك نيتشه**، ممثّل هذه النّظرة، والّتي نجدها حاضرة في معظم مؤلّفاته خاصّة مؤلّفه الّذي اعتبر من أكثر كتبه شعبيّة وإثارة للجدل **هكذا تكلّم زرادشت**، الّذي جرت كتابة كلّ قسم من أقسامه الأربعة بسرعة غير معقولة، في ظرف عشرة أيّـــام، حيث روى نيتشه الإلهام الهائل الّذي كان يتمتّع به في تلك الفترات فيقول:"أنت تسمع ولا تبحث...تشرق عليك فكرة كالبرق"[1]. ومن جهة أخرى، "تفصل كتابة كل قسم عن كتابة

[1]. هذا هو الإنسان- فريدريك نيتشه. منشورات الجمل،(د،ت)، ص:112

القسم الآخر عدّة شهور، فلقد كتب القسم الأوّل في بداية عام 1883م، والثّاني في صيف العام ذاته، والثّالث في بداية عام 1884م، والرّابع في بداية عام 1885م"[1].

فقبل التّصدّي لمضمون هذا الكتاب، علينا تفحّص نقطة أيضا، هي النّقطة المتعلّقة بأسلوب زرادشت، نقطة الشّكل الّتي لا مجال لفصلها عن المضمون. فالكتاب رواية فلسفيّة تتكوّن من سلسلة من المقالات والخطب، كتبها نيتشه بأسلوب شعري ونثري يدعو إلى مجاوزة السّطح إلى الأعماق، وذلك للتّوصّل إلى عمق فلسفته. فبالرّغم من سهولة قراءته، لكنّه من الصّعب جدّا فهمه، نظرا إلى الأسلوب الرّمزي الّذي يكشف عن فلسفة عميقة، حيث يصف نيتشه أسلوبه بأنّه:"فنّ الإيقاع العظيم الّذي يكشف عن انفعالات تفوق الإنسانيّة وتعلو عليها"[2]، ويقول أيضا: "لقد أوصلت اللّغة الألمانيّة إلى ذروة كمالها"[3].

كما رأى نيتشه بأنّ الكتابة الملائمة لقراءته هذه، هي الكتابة المقطعيّة الّتي تنبذ الاستمرار والوصل، هذا الشّكل الشّذري المفكّك المميّز للكتابة النّيتشويّة، فهو يسعى إلى إحياء أسلوب جديد في الكتابة ليس في متناول معاصريه، يقوم على الجمع بين الفلسفة والشّعر.

---

[1]. محاولة جديدة لقراءة فريدريك نيتشه- صفاء عبد السّلام علي جعفر. دار المعرفة الجامعيّة، (د،ت)، ص:38

[2]. زرادشت نيتشه- بيار هربر سوفرين، ترجمة أسامة الحاج. ط:2، مجد للدّراسات والنّشر، بيروت، 2002، ص:38

[3]. م. ن: ص:38

وقد فضّل نيتشه الشّعر، والمثل السّائر، وجوامع الكلم، والمجاز، والاستعارة والحكمة، والمحاكاة السّاخرة.هذا الفيض الّذي يشكّل كتاب زرادشت. ففكره وتعبيره منبثقان من تلك الثّقافة الأخرى المبشَّر بها. ويكفي أن نسوق كأمثلة عن الاستعارة **المطرقة**، فعند نيتشه تستعمل للهدم، ولكن أيضا للنّقش والنّحت التّشكيل، ثمّ تستعمل لتحقيق تناغم الأوتار وانسجام أصواتها. ولغته إذ تتكلّم عن الأشياء، فهي تتكلّم عن صور وإحساسات، عن غائب لا عن حاضر، عن مجاز لا عن حقيقة، يقول نيتشه: "الأسلوب هو تبليغ حالة وجدان داخلي بواسطة العلامات، وإذا حمّنا بأنّ تعدّدية الأحوال الدّاخليّة عندي عجيبة، فإنّ عندي إمكانيّات لأساليب متعدّدة، فنّا للأسلوب الأكثر تنوّعا في أشكاله، الّذي لم يعرفه أي شخص"[1]. وهكذا فالكلام عن الشّيء كلام يستدعي بالرّمز صورة الشّيء وليس الشّيء بالذّات، فالشّمس والقمر والكواكب والنّجوم ليست أشياء فلكيّة في السّماء، ولكنّها الدّفء والأنس والرّفيق، والاقتصاد ليس علم سياسة المال والتّجارة، ولكنّه الغنى والفقر والصحة والمرض والسّعادة والشّقاء.

كما أنّ أسلوب زرادشت ورقيّ لغته، والسّمات الأدبيّة الّتي يتّصف بها، أدّى إلى تضليل قرّائه وبعدهم عن فهم أهدافه الحقيقيّة والأصليّة، بالرّغم ممّا يبذله القارئ من جهد لفهم فلسفته فهما صحيحا، يقول أحد المفكّرين: " من الصّعب أن نفهم نيتشه لأنّه من السّهل أن نسيء فهمه، ومن

[1]. المهماز- جاك داريدا، ترجمة عزيز توما وإبراهيم محمود. ط:1، دار الحوار، سوريا، 2010، ص:86

السّهل أن نقرأ نيتشه لأنّ حكمه، ورموزه، وكلماته المنمّقة، وأشعاره الرّائعة تجعل قراءته تجربة لا ننساها، ولكن ليس من السّهل أن نستوعبها"[1]. كما يتّسم أسلوبه ظاهريّا بالتّناقض، فهو عندما يستخدم المتناقضات يمحوها ويزيلها في نفس الوقت، فمثلا نجده يؤكّد أنّ الإرادة تمتلك حرية إحداث ما لم يحدث بعد، وفي نفس الوقت يؤكّد أنّ الإرادة نفسها هي الدّورة التي تكرر ما حدث بالفعل، وهما قضيتان متعارضتان وتبطل كل منهما الأخرى.

هذا ما جعل نيتشه فريدا، ولتفرّده هذا معنى فلسفيّا. فسوف نرى في الواقع أنّه عبر تحويل القيم، يشرع نيتشه في اعتراض جذري على كلّ ثقافة المجتمع، بواسطة المشروع الطّموح المتمثّل في استبدالها بثقافة أخرى مختلفة وأرقى. بهذا المسعى المزدوج بالضّبط يرتبط أسلوب زرادشت، وبذلك بالضّبط يمكن تفسيره.

أمّا عن المضمون، فقد تعدّدت موضوعات الخطب واختلفت، حيث سبقها مدخل منظّم إلى مجمل كتاب زرادشت، ونقصد الاستهلال الّذي ينضوي حول فكرة الإنسان الأعلى المركزيّة.هذه الفكرة الّتي تندرج تحتها أربعة مواضيع فرعيّة(العدميّة،التّحوّل،إرادة القوّة، والعود الأبدي)،والّتي سوف تكون بدورها الموضوع الرّئيسي لواحد من الأقسام الأربعة للكتاب.والإنسان الأعلى الّذي يتكلّم عنه نيتشه هو ماجاء زرادشت للتّبشير به، وبالانعطاف الثّقافي الكامل، كنبي حضارة جديدة، لا إغريقيّة

[1]. فلسفة الأخلاق فريدريك نيتشه – يسري إبراهيم. دار التنوير، بيروت، 2007، ص:85

ولا مسيحيّة، جديدة بصورة جذريّة. ذلك أنّ وضوح الرّؤية لدى زرادشت يجعله يحقّق وضعا فعليّا جديدا هو موت الإله. فعلى حدّ تعبير نيتشه، فإنّه لم يعد أحد في حضارتنا ما عدا بعض النّاس المتخلّفين يؤمن بالإله، أو بصورة أعمّ بوجود الآخرة.

وقد قاده وضوح الرّؤية ذاته إلى استخلاص النّتائج من هذا الواقع، وتدمير كلّ الأوهام والثّقافة القديمة الّتي كانت تستند إلى فكرة الإله، ونبذ عالم الميتافيزياء الثّنائيّة، ومعه الأخلاق الّتي تغذّت منها هذه الميتافيزياء، والّتي شكّلت بالمقابل أساسا لها، فقد عمل زرادشت بدوره على قلب القيم القديمة. لكنّ نيتشه لا يرفض ويدمّر إلّا ليبني.إنّ إنسان الأخلاق التّقليدية، تلك الأخلاق الّتي يقصيها نيتشه بالضّبط، هو الّذي يدمّر للتّدمير.ولهـذا السّبب بالذّات، يقصي نيتشه أخلاقه. لكنّ نيتشه من جهته لا يدمّر أخلاقا إلّا لاستبدالها بأخرى، فإذا كان زرادشت يفرح لموت الإله، فذلك لأنّ هذا الواقع يسمح ببناءات جديدة، ولأنّ هذا الحدث التّاريخي يشكّل مبدءا ميتافيزيائيّا جديدا، ولأنّه انطلاقا من ذلك يصبح كلّ شيء أي حتّى الأمل الأكثر جنونا مسموحا به، ويمكن أن تولّد أخلاق جديدة أسمى من الأخلاق التّقليديّة بأشواط.كما يمكن أن يولّد الإنسان الأعلى الممتلئ بازدراء محقّ للإنسان وأخلاقه. هذا الإنسان الأعلى بالذّات الّذي تحرّكه الفضيلة الجديدة لأخلاق جديدة، إرادة القوّة، سوف يباشر الطّور الثّاني من تحويل القيم؛أي صنع قيم جديدة انطلاقا من واقع أنّه لم يعد هناك أيّ كائن أعلى ليتولّى فرضها.

لكن الأناس الأكثر مدعاة للازدراء بين النّاس لا يفهمون كزرادشت أنّ كلّ شيء مسموح به، فبالنّسبة إليهم لا يعني أنّ الإنسان قادر على كلّ شيء، بل إنّ للإنسان كلّ الحقوق، لا يعني أنّ أشياء عظيمة ممكنة، بل إنّ كلّ الأشياء التّافهة مجازة. إنّهم لا يفهمون أنّه إذا كان الإله قد مات، لم يعد هناك أخلاق أو واجب، أو قاعدة حياة.وإنّ موت الإله بما هو شرط ضروريّ لأخلاق جديدة، وبصورة أعمّ لثقافة جديدة، ليس إذا الشّرط الكافي لقيام تلك الأخلاق، بل وجب عليه أيضا أن يمتلئ باشتراط جديد، أي بفضيلة إرادة القوّة.فإذا كان يمتلئ بإرادة الضّعف أو العدم، يمكنه أن يقود على العكس إلى السّقوط الأقصى.لا بل إلى ما دون الأخلاق القديمة، إلى العدميّة القصوى.ها هو ما يكشف لزرادشت وضوح الرّؤية لديه وما يجبره صدقه على المناداة به، يقول: "إنّ موت الإله متساوي الحدّين، فهو يسمح بآمال كبرى، لكنّه ينطوي أيضا على مخاطرة رهيبة."[1] ولا يوجد أيّ مخرج أو حلّ وسيط.

إنّ الجمهور لا يريد أن يفهم هذا الدّرس الّذي فحواه أنّه يمكن ربح كلّ شيء أو خسارة كلّ شيء من موت الإله، وزرادشت يمنى بالفشل. برغم ذلك لا شيء يدعو للأسف، ففشل زرادشت لا يدفع به إلى اليأس، ذلك أنّه يعرف أنّه إذا كان الجمهور عاجزا عن فهم درسه، فسيكون في وسع بعض الأفراد أن يفهموه ويجعلوا من أنفسهم معه، مبدعين للإنسان الأعلى. ينتهي الاستهلال بفكرة

[1]. هكذا تكلّم زرادشت- فريدريك نيتشه، ترجمة فليكس فارس. جريدة البصير، الإسكندريّة، 1938، ص:232

زرادشت العليا، تلك الّتي سيفهمها هؤلاء المبدعون فقط. إنّها رؤية جديدة للعالم غير ثنائيّة، هي ميتافيزياء جديدة لا يتحدّد موقع موضوعها ما وراء الملموس الفيزيائي.**لماذا**

يتكلّـــم زرادشـــت هكـــذا؟

أولماذا زرادشـــت هو الّـــذي يتكلّـــم؟

يحدّثنا نيتشه ابن القرن 19 بلسان نبيّ إيراني ابن القرن السّابع قبل الميلاد. إذ اختاره بالضّبط لكي يجعل بطله يقول العكس تماما لما قاله زرادشت التّاريخي.فقد وضعهما الواحد بمعارضة الآخر بصورة جذريّة، فمن جهة قام دور زرادشت التّاريخي في الواقع على ابتداع ثنائيّة ذات مصدر أخلاقي، ثنائيّة كانت تفسّر كلّ شيء بعمل مبدأين متصارعين، كان أحدهما هو الخير والآخر الشّر.والحال من جهة أخرى، أنّ هذه الثّنائيّة وهذه النّزعة الأخلاقيّة، هما ما سيرفضه زرادشت الشّخصيّة الأدبيّة، لأنّ رفض هذه الثّنائيّة وهذه النّزعة الأخلاقيّة، هوبالضبط ما يشكّل نقطة أساسيّة في فكر نيتشه.لكن إذا كان زرادشت بالذّات هو الّذي يأتي ليناقض رسالته الأولى، فليس ذلك فقط على سبيل السّخرية-إذ لم تكن سخرية زرادشت مجّانية يوما من الأيّام- بل لأنّ زرادشت التّاريخي كان مثله مثل نيتشه، واضح الرّؤية وصادقا، ولأنّ وضوح الرّؤية هذا وذلك الصّدق لابدّ أن يكونا قادا منطقيّا إلى هذا الانعطاف الّذي أحدثه زرادشت النّيتشوي .

يجد نيتشه البرهان على وضوح الرّؤية هذا في واقع أنّ زرادشت هو أوّل من رأى أساس الواقع في التّعارض بين الخير والشّر، يقول نيتشه في كتابه هذا هو الإنسان، في القسم الّذي يحمل عنوان لماذا أنا مصير: "لقد كان زرادشت أوّل من نظر إلى الحرب بين الخير والشّر على أنّها العجلة الّتي توجّه آلية الأشياء، وكانت مهمّته هي نقل الأخلاق إلى المجال الميتافيزيقي كقوّة وعلّة وغاية في ذاتها.لقد خلق زرادشت هذا الخطأ الفاجع وهو الأخلاق، وبالتّالي يجب أن يكون أوّل من يدرك هذا الخطأ، ليس فقط لأنّ لديه خبرة في هذا الشّأن أكثر من أيّ مفكّر آخر، فالأهمّ أنّ زرادشت كان أكثر صدق من أيّ مفكّر آخر غيره.فمذهبه ووحدته تضع الصّدق باعتباره أسمى فضيلة، وهذا بعكس المثاليّين الجبناء الّذين يهربون من الواقع. وزرادشت أكثر قدرة على التّحمّل من كلّ المفكّرين الآخرين مجتمعين، فالفضيلة الفارسيّة تقول أنّ على الإنسان أن يقول الصّدق، وأن يصوّب سهامه بمهارة"[1]. فما يهمّ نيتشه من جهة، إنّما هو بوجه خاصّ كون زرادشت أوّل من رأى هذه الثّنائية الأخلاقية، الّتي جرى تلقّيها مذّاك كإرث من التّوراة واليونان وسوف تطبع ثقافة المجتمع.

أمّا وضوح الرّؤية، فيقصد به نيتشه كون المرء صادقا حيال ذاته، وأن يكون له شجاعة آرائه، شجاعة الحقيقة، إنّها قبل كلّ شيء شجاعة التعبيرعن تلك الآراء و التّفكير فيها. بهذا المعنى بالذّات، كان زرادشت أكثر صدقا من أيّ مفكر آخر، وهذا هو السّبب في أنّ نيتشه قد اختاره؛ بسبب

[1]. هذا هو الإنسان- فريدريك نيتشه. ص:155

ذلك الصّدق ووضوح الرّؤية الّذي يميّز نيتشه بالذّات، والّذي أتاح لزرادشت الفعلي أن يرى الأساس الأخلاقي لميتافيزيائه، والّذي يُكرهه الآن بصورة منطقيّة على أن يصير نقيض ما كان من قبل تماما، ونقصد زرادشت النّينشوي.

"ويقدّم دانهاوسر عدّة أسباب أخرى لاختيار نيتشه زرادشت كقناع، **والسّبب الأوّل**: أنّ اسم زرادشت نفسه كان حتميّا ليعيد إلى ذاكرة القارئ الأوربّي صورة الشّرق، ويعدّه لنقد التّراث الغربي كلّه.**والسّبب الثّاني**: أنّه بالكلام على لسان مؤسّس عقيدة، يشير نيتشه أكثر من مرّة إلى أنّه أكثر من مجرّد فيلسوف تقليدي. **والسّبب الثّالث**:إنّ اسم زرادشت يمثّل نهاية مفاجئة لجملة تبدأ بهكذا تكلّم، لأنّ هكذا تكلّم، صوت توراتي استخدمه لوثر[1] أحيانا في ترجمته الألمانية للكتاب المقدّس، والنّهاية المفاجئة تصبح مفهومة بالنّسبة لكتاب يبدأ بالتّأكيد عن أنّ الإله قد مات"[2]، فاختيار نيتشه لزرادشت اختيار ذو مغزى.

كان هذا فيما يخص شكل ومضمون الكتاب بصفة عامّة، أمّا الآن فسنتطرّق إلى المضمون بشيء من التّفصيل، بعرض الأفكار الأساسية له، بدءا بالعدميّة، **فماذا تعني عند نيتشه ؟**

---

[1]. واسمه الكامل مارتن لوثر كنج جونيور، زعيم أمريكي من أصول إفريقية، قسّ وناشط سياسي (1929-1968)

[2]. فلسفة الأخلاق فريدريك نيتشه – يسري إبراهيم. ص:149،148

العدميّـــــة

لا ينقطع الإنسان عن التّقييم بمقدار ما هو إنسان، ولا ينقطع عن النّظر إلى الأشياء و الحياة بمعيار القيمة، ونيتشه أراد أن يحيل كلّ مسائل الوجود إلى مسائل القيمة.فالإنسان إذ ينقطع عن ممارسة فعل التقييم يفقد صفته النّوعية، وما إن يفقد هذه الصّفة تصبح معه كلّ الأشياء دون قيمة، ومع فقدان القيمة والنّظر إلى الأشياء من زاوية العبث، تصبح الحياة غير طبيعية، بمعنى أنّها تقيّم بعد ذلك وفق معايير ساذجة، فالقيمة السّائدة إنّما هي العدم.

فالعدميّة نزعة ورؤية في الوجود، تعني أنّ أعلى القيم تفقد كلّ قيمة، حيث يعتبرها نيتشه حالة مرضيّة انتقاليّة، انتهت إليها الحضارة المعاصرة بعد أن أدركت بأنّ الوجود في أساسه بلا غاية، بلا وحدة، بلا حقيقة، بلا قيمة. ويقصد بحالة مرضيّة؛ أنّها تتتبّع تحوّلا في الوجود الإنساني يبدو وكأنه مرض جسيم. أمّا حالة انتقالية، فهي مرحلة يتمّ التّغلّب عليها عندما لا نعتبر العالم بعد موت الإله عالما ملعونا هجره الإله، بل أنّ هذا العالم بدأ الخوض في تجربة جديدة للوجود.

والعدميّة نوعان:عدميّة سلبية وعدمية إيجابيّة، أمّا نيتشه فقد مثّل وجه العدميّة البنّاء، الإيجابي،الواعي. فقد أضفى على الحياة قيمة إيجابيّة بعد أن تخلّى عن كلّ ما أورثه شوبنهاور من تشاؤم وسلبيّة، فنجده لا يهدم إلّا ليبني، عكس العدميّة السّلبيّة الّتي لا تكترث بالحياة وبما هو

موجود، فهي ارتكاسية لا تقيم وزنا للوجود ولا تؤمن به، كعدمية ماكس شتيرنز[1] سلبيّة وهدّامة. فعدميّة نيتشه تبدأ بالضّبط حينما يعلن تمرّده، وهذا التّمرّد يبدأ حينما يعلن موت الإله على لسان زرادشت، لكنّه في الوقت نفسه يجد البديل عنه وهو الإنسان الأعلى. ويقصد نيتشه من قوله بأنّ موت الإله حلول للعدميّة؛ بأنّه تناقص قيمة الدّين والأخلاق والميتافيزيقا تناقصا ذاتيّا، وتحوّل في القيم تحوّلا فعّالا، بوصفه نقدا للقيم القديمة.

فالمسيحيّة والبوذيّة عند نيتشه عدميّة، لأنّه لم ينظر إليها كعقيدة أو كوحي إلهي، وإنّما بمثابة منظومة قيم وأخلاق للعبيد، تحول دون اكتشاف المعنى الحقيقي للحياة. والإشتراكية عدمية أيضا، فهي الأخرى يصفها أخلاقا للضّعفاء. فكلّ ما يحول دون اكتشاف المعنى الحقيقي للحياة فهو عدميّ في نظر نيتشه. وكلّ محاولة في فلسفة نيتشه تكمن للتّغلّب على هذه النّزعة،عبر إنسانيّة متفوّقة، ستدفن كلّ آلهتها أوّلا، ثمّ تبدأ تاريخا جديدا. كتب نيتشه عام 1887م قائلا:"على الرّغم من أنّني عدميّ متطرّف، إلّا أنّني لم أيأس من العثور على باب الخروج وعلى المنفذ الّذي يفضي إلى شيء ما"[2].

[1]. الفيلسوف الألماني (1806 – 1856)

[2]. نيتشه وسياسة الفلسفة - محمّد أندلسي. ط:1، دار توبقال، المغرب، 2006، ص:58

"ويرى مارتن هيدغر[1] أنّ العدميّة عند نيتشه هي إرادة النّفي الكامنة وراء الحضارة الغربيّة، وهي تتشكّل في نظره من عدّة لحظات:من لحظة قيام القيم العليا، ثمّ لحظة تبخيسها وتقويمها،مرورا بلحظة الوجود الفارغ من المعنى والفاقد لكلّ قيمة، ثمّ أخيرا ضرورة إحلال قيم جديدة محلّ القيم القديمة"[2].وحسب مؤلّف زرادشت نيتشه، يمكن التمييز بين أربعة معان للعدميّة:

1. تبخيس قيمة العالم المادّي باسم عالم آخر مثالي.
2. تبخيس قيمة العالم المثالي وهذا العالم المحسوس.
3. محاولة للفعل بدون أي تبرير مستمدّ من الإيمان بعالم آخر، واستبدال الأساس الإلهي للقيم بأساس إنساني.
4. إرادة أفول التمرّد وهدم الألواح القديمة وبناء ألواح جديدة.

وهكذا تتأسّس العدميّة على نفي القيم العليا واستبدالها بقيم إنسانية، حيث يستبدل الدّين بالأخلاق، والقيم السّماوية أو العليا بقيم الفائدة والتّقدّم والتّاريخ.

ويرى جيل دولوز[3] "أنّ النتيجة المترتّبة عن حدث العدميّة وهيمنتها على الحضارة الغربية

---

[1]. الفيلسوف الألماني(1889- 1976)

[2]. نيتشه وسياسة الفلسفة – محمّد أندلسي. ص:58

[3]. الفيلسوف الفرنسي (1926-1995)

الحديثة، هـي سيادة الرّوح الإنكارية الّتي يمكن تلخيصها في مبدأ تبخيس الحياة والوجود، وهو المبدأ الّذي تتأسّس عليه فلسفة نيتشه برمّتها"[1]. لكنّ نيتشه لم ينجح في أن يجد مخرجا من هذه العدميّة، وعجز تماما عن تجاوزها.

ونحن نرى أنّ موت الإله الّذي أعلنه نيتشه، يسلب العالم كلّ معانيه، ويحلّ محلّ العدميّة السّلبية، عدمية إيجابية أكثر قسوة لا تقدّم أيّ عون للإنسان. والخطأ الأكبر الّذي وقع فيه نيتشه في رأينا، أنّه تصوّر أنّ القضاء على العدميّة يبدأ بالقضاء على فكرة الإله، فأعلن عن موته دون أن يدري أنّه بذلك يدفع العالم إلى الهاوية، حيث يصبح بلا قانون يحكمه.

والسّؤال الّذي نطرحه الآن:إذا كانت العدميّة عند نيتشه تبدأ بالقضاء على فكرة الإله، **فما حقيقة هذا الإله الّذي ينكره نيتشه ؟**

[1]. نيتشه وسياسة الفلسفة - محمّد أندلسي. ص:62

مـوت الإلـــــه

يمكن تفسير هذا الحدث مباشرة على أنّه زوال مفهوم الآخرة، أو العالم الآخر من حقل ثقافتنا. فنيتشه لا يفصل بين فكرة العالم الآخر وفكرة الإله، باعتباره يشكّل أساس هذا العالم، ويمثّل أكبر اعتراض على الحياة الأرضية. حتّى لقد ذهب هيدغر إلى أنّ الإله الّذي يعلن نيتشه عن موته هو العالم المجاوز للحسّ. ولقد تكلّم نيتشه لأوّل مرّة عن موت الإله المسيحي في الكتاب الثّالث من العلم المرح حيث قال: "لقد مات الإله المسيح، وربّما تبقى هناك كهوف يظهر فيها شبحه لآلاف السّنين، ومازال علينا أن نقهر شبحه أيضا"[1]. ثمّ جاء زرادشت ليعيد على الأسماع هذا النّبأ المروّع عن موت الإله المسيحي، يقول: "ألم يسمع هذا القدّيس العجوز في غابه أنّ الإله قد مات!"[2]، لكنّه في هذه المرّة يحمل البشارة بالإنسان الأعلى إذ يختتم زرادشت الجزء الأوّل من كتابه بقسم يحمل عنوان الفضيلة الواهبة بقوله: "لقد مات جميع الآلهة، والآن فإنّنا نريد الإنسان الأعلى، ولتكن هذه هي إرادتنا الأخيرة"[3].

وهكذا فإنّ نيتشه يعلن عن موت الإله المسيحي متخوّفا من عاقبة هذا الحدث المروّع، ومن

---

[1]. العلم المرح - فريدريك نيتشه، ترجمة حسّان بورقية ومحمّد النّاجي. ط:1، إفريقيا الشّرق،1993، ص:132

[2]. هكذا تكلّم زرادشت - فريدريك نيتشه. ص:5

[3]. م.ن:65

الفوضى الّتي يمكن أن تحلّ بالعالم نتيجة موته. ومن ناحية أخرى، فإنّ الاعتقاد بوجوده يضرّ بالحياة الإنسانيّة أعظم الضّرر. فنلحظ أنّ زرادشت يدعو الإنسان ألّا يتطلّع بعقله إلى ما وراء هذا العالم المحسوس، وأن يقصر تفكيره على ما يمكن رؤيته والإحساس به فقط، يقول: "إنّ الإله المسيحي مجرّد افتراض، ولكنّي أريدكم ألّا تفترضوا وراء حدود إرادتكم الخلّاقة. هل تستطيعون أن تخلقوا إلها ؟ إذن فلا تحدّثوني عن أيّ إله، ولكنّكم تستطيعون حقّا أن تخلقوا الإنسان الأعلى"[1]. ويجب أن نؤكّد أنّ نيتشه يحارب الإله المسيحي باعتباره أساسا لحشد من القيم الخلقيّة الّتي تنتقص من قيمة الحياة الأرضيّة، وتعكّر صفو بهجتها، وتقف عائقا في سبيل ثرائها، وباعتباره أيضا صيغة لكلّ تشويه لهذا العالم، ولكلّ أكذوبة عن العالم الورائي؛ إنّه تعريف للعدميّة. ولعلّ هذا هو ما جعل نيتشه يذهب إلى أنّ المسيحيّة مثل البوذيّة، ديانة عدميّة وديانة انحطاط. وكراهيته للإله المسيحي دفعته إلى رفض جميع الآلهة على الإطلاق، متصوّرا أنّ الألوهيّة ابتزاز للحياة الإنسانيّة.

وهنا يتجلّى لنا خطأ نيتشه، وذلك لأنّه لم يتجاوز كراهية هذا الإله الكنسي ليؤمن بإله لا يبتزّ حياة البشر، ويعطيهم دون أن ينتظر منهم جزاء ولا شكورا، ويأمرهم أن يأخذوا نصيبهم من الحياة الدّنيا الّتي عشقها نيتشه وهام في حبّها. ويجب أن نذكر هنا أنّ العقيدة الإسلاميّة مرتبطة بالحياة على هذه الأرض، والّتي يدعونا اللّه تعالى إلى أن نأكل من طيّباتها وخيراتها، كما ترتبط بالحياة الأخرى

[1]. هكذا تكلّم زرادشت – فريدريك نيتشه. ص:16

باعتبارها خير وأبقى؛ أي خير من الحياة الدّنيا وأبقى منها، فهي حياة خالدة لا تنتهي، ونعيمها أبديّ لا يزول. فاستمتاعي بحياتي الدّنيويّة وإبداعي فيها، لا يتعارض مع كوني عبدا من عباد اللّه الصّالحين. كما أنّ تعاليم العقيدة الإسلاميّة تحقّق أعظم ممّا يسمّيه نيتشه بالبهجة الإغريقيّة. وربّما يتساءل البعض إذا كان الإسلام دعوة للإقبال على الحياة والإبداع فيها، فما معنى الزّهد في الإسلام؟ والإجابة على هذا السّؤال نجدها في قول أحد الصّوفيّة: "ليس الزّهد ألّا تملك شيئا، لكنّ الزّهد ألّا يملكك شيء"[1]. وهكذا فإنّ الزّهد في الإسلام يعني الزّهد الواعي الّذي يحمينا من أن نكون عبيدا للأشياء، ويدفعنا إلى أن نعمل من أجل الآخرة الّتي تصبح على هذا النّحو حياة حقيقيّة، ونورا نهتدي به في حياتنا، لا وهما ننسى به آلامنا في هذه الحياة الدّنيا.

ولا شكّ أنّ هناك فرقا كبيرا بين القول بأنّ نيتشه كان يرفض الإله المسيحي الكنسي بالدّرجة الأولى، ثمّ ينتهي إلى رفض جميع الآلهة، والتّعميم القائل بأنّ نيتشه يرفض جميع الآلهة على الإطلاق، فأصحاب هذا التّعميم يتجاهلون حقيقة أنّ جوهر المسيحية الكنسية هو الدّافع الأساسي والوحيد الّذي دفع نيتشه إلى هذا الاعتقاد، بسبب قيمها الخلقيّة الفاسدة الّتي تدسّ السّمّ للحياة الإنسانيّة على حدّ تعبيره، ويؤكّد رأينا هذا أمران رئيسيّان:

الأمر الأوّل: هو إعجاب نيتشه الشّديد بآلهة الإغريق، لأنّها حقّقت لهم البهجة الحقيقيّة الّتي

[1]. فلسفة الأخلاق (فردريك نيتشه)- إبراهيم يسري. ص:168

دفعتهم إلى الإقبال على الحياة والإبداع فيها، فهذا لا يعني أنّه يرفض جميع الآلهة أو فكرة الألوهية، بل يعني أنّه يرفض إلها ذا طبيعة خاصّة يمقتها.

والأمر الثّاني: هو تصريح نيتشه بأنّه يمكن أن يعود بقلبه إلى مساكن الإله، ويقصد معابده حين تخلو من النّور المزيّف والهواء العفن، وتصبح مكانا بهيجا تصفوا سماؤه وتتفتّح ورودُه، إذ يقول على لسان زرادشت في قسم بعنوان الكهنة: " ولكن عندما تتجلّى السّماء الصّافية خلال الأسقف الّتي تملؤها الشّقوق، وعلى الحشائش الخضراء والورود الحمراء المتفتّحة بالقرب من الجدران المتهدّمة، عندئذ فقط سأعود بقلبي مرّة أخرى إلى مساكن هذا الإله"[1]

وأخيرا، نستطيع أن نقول أنّ هجوم نيتشه على الإله المسيحي الكنسي الّذي يمثّل الأساس الّذي يقوم عليه العالم الآخر، كان بمثابة منطلق في هجومه على سماء الميتافيزيقا، فهو يعتقد أنّه بهدمه لهذه السّماء، يطيح بالعقيدة المسيحيّة وقيمها الخلقيّة، ويعيد للوجـود براءته وحرّيته العظيمة الّتي ستشمل كلّ البشر، فليست هناك إرادة إلهيّة أبديّة تتحكّم في الإرادة الإنسانيّة. فالإنسان حرّ مبدع لقيمه الخاصّة به. وبهذا يريد نيتشه إحداث تحوّل جذريّ يرقى بالإنسانيّة، وذلك بتنشئة إنسان مثاليّ مناهض لكلّ ما هو تقليديّ يعيق إرادة الإنسان. **فما هو نوع هذا التّحوّل، وفيما تمثّل؟**

[1]. هكذا تكلّم زرادشت- فريدريك نيتشه. ص:203، 204

التّحـــوّل

التّبشير بثقافة جديدة:

في الثّلاثين من العمر، نزل يسوع المسيح إلى ضفاف الأردن وبدأ حياته العامّة. وعلى العكس تماما، "حين بلغ زرادشت الثّلاثين من العمر، غادر بلده وبحيرة بلده، ومضى إلى الجبل، وهناك استمتع بعزلته."[1] من جهة أخرى يرى أفلاطون[2] أنّ الحكيم هو ذلك الّذي تخلّص من الغار الّذي يقيم فيه النّاس العاديّون في حالة الجهل، وعلى العكس تماما يعيش زرادشت، في غار تأتي الشّمس وتلقي ضوئها عليه فيه.من ذلك يتجلّى لنا نقد نيتشه الجذريّ للتّراث الثّقافي، فأورشليم وأثينا تمثّلان كلّ الثّقافة الشّرقيّة(دينها،فلسفتها،فنّها،علمها وأخلاقها)الّتي لا تنفصل بدورها عن الثّقافة الإغريقيّة واليهوديّة والمسيحيّة، الّتي يلاحظ زرادشت قدمها وعدم صلاحيّتها، ويدعو إلى استبدالها، فبرأيه يجب أن تنهار الحضارة بأكملها وأن تبدأ من جديد، وتبني شيئا آخر. لكنّ مسعى زرادشت لكونه جذريّ بالضّبط، لا ينطلق من نقد لأفلاطون ويسوع المسيح، بل ينطلق ممّا دون هذا النّقد. ففي رأي أفلاطون أنّ عالم الأفكار والمعرفة لا يتناول العالم المحسوس، بل يرتبط بالعالم المعقول، هذا العالم الّذي يعترض نيتشه على الإيمان به، فبدل العقل والعقلانيّة، جعل الجسد هو العقل الأكبـر، وأنّ

[1]. هكذا تكلّم زرادشت – فريدريك نيتشه. ص: 12

[2]. الفيلسوف اليوناني (347- 427)

اللّاعقل هو المصدر الأصل، يقول: "ففي كلّ مكان يكاد يكون الجنون هو الّذي يفتح الطّريق أمام الفكر الجديد، وعلى البشر أن يحقّقوا أهدافهم الكلّية، والإنسان المتفوّق هو الّذي يستطيع تحقيق الأهداف..."[1]. من هنا نفهم أنّ نيتشه يستهدف عبر أفلاطون كلّ الثّقافة المتأثّرة به.

لكنّه يرفض أيضا الإله المسيحي الواعظ بالأخلاق والمشعر بالذّنب بصورة أساسيّة.هذا الإله الّذي أهانته خطيئة البشر، والّذي يأتي بنفسه للتّكفير عن هذا الخطأ، يخلي المكان للنّجم الّذي يجد سعادته في النّاس، يقول زرادشت: "أيّها النّجم العظيم! أكانت لك هذه الغبطة لو لم يكن لك من تنيرهم !"[2]. يخلي المكان لزرادشت، نبيّ السّعادة الّذي ينزل إلى الأرض، مثلما تجسّد الإله في يسوع المسيح لينقل رسالته. وحتّى إذا كان زرادشت يمثّل صفات عديدة للإنسان الأعلى، فهو ليس الإنسان الأعلى بالذّات، بل جاء يبشّر به. وفي كلّ حال، ليس رفض الإله مقتصرا على رفض الإله الواحد اليهودي أو المسيحي، إنّما رفض الآلهة بكلّ أشكالها.لكنّ الهدف الأساسي بات محدّدا، وهو تأسيس عالم من القيم والمثل العليا:الخير، الحقيقة، الجمال،...والحكم على كلّ الأشياء بالنّسبة إلى هذه القيم، إذ يستعيد نيتشه هذه الثّقافة من جذورها، فهو ينوي قلب كلّ هذا الفكر واستبداله بآخر.

1. زرادشت نيتشه - بيار هربر سوفرين. ص:50

2. هكذا تكلّم زرادشت – فريدريك نيتشه. ص: 3

كما أنّ نقد نيتشه لقيم قرنه كان شرسا، وهذا التّحوّل هو ترميم لنظام قديم يقول: "الحكماء...من جديد...الفقراء...من جديد"[1]، فلقد جاء زرادشت مبشّرا بالإنسان الّذي سيمحو كلّ ما كان موروثا ومقدّسا، بالإنسان الأعلى الّذي سيقلب كلّ القيم، ويعيد للإنسانية نظاما طبيعيّا.

فمن هو هذا الإنسان الأعلى، وما أهمّ مميّزاته؟

الإنسان الأعـلى

إنّ فكرة الإنسان الأعلى هي الفكرة الأساسيّة في الاستهلال، فزرادشت يبشّر بالإنسان الأعلى بعد أن يعلن موت الإله المسيحي مباشرة. وإنّه يقدّم الإنسان الأعلى كبديل عنه. ويجب أن نلاحظ قبل كلّ شيء أنّ نيتشه لم يبتكر لفظ الإنسان الأعلى، وذلك لأنّنا نجد هذا اللّفظ أيضا في كتابات عديدة، ففي اللّغة الألمـانيّة، استخدم هذا اللّفظ هردر[2]، وغوته[3]، ولكنّ نيتشه على لسان زرادشت قد أعطى المصطلح معنى جديدا، فخطبته الأولى إلى البشر تبدأ ب:"إنّني أبشّركم بالإنسان الأعلى،

---

[1]. هكذا تكلّم زرادشت – فريدريك نيتشه. ص: 222

[2] . الفيلسوف الألماني (1744-1803)

[3]. و اسمه الكامل يوهان فولفغانغ غوته ،الفيلسوف الألماني(1749-1832)

ذلك الّذي يلتقي فيه رجل وامرأة يشتاقان إلى الإنسان الأعلى.فلا يريدان طفلهما باعتباره يمثّل جيلا آخر، بل باعتباره يتفوّق عليهما.وفي هذا يقول على لسان زرادشت: "إنّ الزّواج في تصوّري، هو إرادة اثنين لخلق الفرد الّذي يكون أعلى منهما، والاحترام المتبادل بين هذين الاثنين واحترامهما لمثل هذه الإرادة، هو ما أسمّيه بالزّواج. فليكن هذا هو معنى زواجك وحقيقته"[1]

ومن ناحية أخرى، فإنّ زرادشت يقول: "ما القرد بالنّسبة للإنسان؟ إنّه أضحوكة أو عار مؤلم، وهكذا يجب أيضا أن يكون الإنسان بالنّسبة للإنسان الأعلى، أضحوكة أو عارا مؤلما. لقد سلكتم طريقكم من الدّودة إلى الإنسان، ولكن مازال فيكم من الدّودة الكثير.لقد كنتم في وقت من الأوقات قرودا، و مازال الإنسان حتّى اليوم قردا أكثر من القرود"[2]. وبناءا على هذه العبارة الّتي قالها زرادشت، أيضا لا نستطيع أبدا أن نقول إنّ الإنسان الأعلى ثمرة لتقدّم تطوّريّ، لأنّ التّطوّر لا يعني أبدا أنّ الإنسان الأعلى مازال قردا حتّى اليوم، أو أنّ فيه من الدّودة الكثير. وحين يقول نيتشه: "إنّ الإنسان حبل مشدود بين الحيوان والإنسان الأعلى"[3]، فإنّه "يعني كما يقول كوفمان؛ أنّ الإنسان يوجد بداخله معا: الإنسان العادي الّذي هو أقرب إلى الحيوان من حيث عدم قدرته على الخلق

[1]. هكذا تكلّم زرادشت – فريدريك نيتشه. ص: 182،181

[2]. م. ن: 6

[3]. م. ن: 8

والإبداع، والإنسان الأعلى الخالق المبدع"[1]. كما أنّ عظمة الإنسان كما يقول نيتشه، تكمن في أنّه جسر وليس غاية، وما يمكن أن نحبّه في الإنسان أنّه يمهّد للإنسان الأعلى ثمّ يزول. ويقول نيتشه على لسان زرادشت: "إنّ الإنسان الأعلى قريب من قلبي، إنّه شغلي الشّاغل الوحيد، ولا أقصد به جاري الضّعيف الّذي يبعث على الأسى، كما لا أقصد به إنسانا أفضل منه، إنّ ما أحبّه في الإنسان هو أنّه تحوّل وتدهور"[2]. ومعنى ذلك كما يقول ياسبرز[3]، أنّ نيتشه لا يهتمّ بما هو مرئيّ في الإنسان أو بما هو محتجب فيه، ولكنّه بالأحرى يهتمّ بالمستقبل البعيد عن الإنسان، والّذي يجب الوصول إليه عن طريقه. فإيجاد الإنسان الأعلى هو مهمّة نيتشه، لذلك نجده ينتقد المجتمع لأنّه يعوق نموّ الإنسان الأعلى، كذلك يهاجم المسيحيّة لأنّها في رأيه تروّض الإنسان وتعوق سموّه، يقول في كتابه إرادة القوّة: "فالكنيسة ترسل كلّ الرّجال العظماء إلى الجحيم، وتحارب عظمة الإنسان"[4].

ومن مميّزات الإنسان الأعلى، حبّه للخطر والنّزاع، شريطة أن يكون لهذين غرض وقصد. فالإنسان الأعلى لا يطلب السّلامة والنّجاة، يترك السّعادة للعدد الأضخم. فزرادشت كان يعشق كلّ مثل هذه الأمور، ولم يكن يحبّ أن يعيش بدون خطر يقول: "إنّ الإنسان حبل مشدود بين

---

[1]. فلسفة الأخلاق فريدريك نيتشه - يسري إبراهيم. ص:293

[2]. هكذا تكلّم زرادشت - فريدريك نيتشه. ص: 342

[3]. واسمه الكامل كارل تيودور ياسبرز،الفيلسوف الألماني (1883-1969)

[4]. فلسفة الأخلاق فريدريك نيتشه - يسري إبراهيم. ص: 292

الحيوان والإنسان الأعلى، فهو الحبل المشدود فوق الهاوية"[1]. وزرادشت يعجب بالبهلوان عندما كان يلعب على الحبل، أحبّه لأنّه يجعل من الخطر مهنة له.

وهو يبغض الشّفقة أشدّ البغض، فهو قاس كلّ القسوة على نفسه وعلى النّاس، يقول:"يجب عليك القسوة، فعن هذا الطّريق وحده يرتفع الإنسان إلى أعلى"[2]. وذلك لأنّه يرى أنّ القسوة أعظم شيء يؤدّي إلى تقوية الإنسان وتربيته على القيام بالخطير من الأعمال، هذا بالنّسبة إلى نفسه. أمّا بالنّسبة إلى الآخرين، فلا شيء أخطر على المجتمع من الشّفقة على المنحلّين والضّعفاء والعاجزين. فإنّ الإنسان يفقد قواه حين يشعر بالشّفقة نحو الآخرين أو نحو نفسه.

وأهمّ من هذا كلّه، الشّعور بالمسؤوليّة أمام نفسه، فلابدّ له من أن يكون قويّ الشّعور بالمسؤوليّة عن كلّما يقوم به من أعمال، مخاطر من أجل السّموّ بالحياة، والسّير في الطّريق إلى الإنسان الأعلى.

كما يؤمن بنظريّة العود الأبدي الّتي تجعل المسؤوليّة مضاعفة، وتجعل واجبه نحو الحياة ساميا. فعليه أن يتصوّر كلّ شيء من ناحية الخلود والأبديّة، وتصوّر الأشياء من هذه النّاحية، يدعوه ألّا يفعل شيئا إلّا إذا كان هذا الشّيء ممّا يستحقّ الخلود، وممّا يستحقّ أن يفعل عدّة مرّات. ويكفي هذا

---

[1]. هكذا تكلّم زرادشت - فريدريك نيتشه. ص: 8

[2]. م. ن: 125

التّصوّر لكيلا يقوم الإنسان إلّا بأجلّ الأعمال وأحراها بالتّكرار.

كذلك من سمات الإنسان الأعلى أن يكون إنسانا يريد، فالحياة إرادة، وليست هذه الإرادة إلّا إرادة قوّة.

إرادة القـــوّة

فلسفة القوّة عند نيتشه ترى أنّ الأفعال الإنسانيّة تجلّيات لإرادة القوّة، يقول:"حيث توجد حياة، توجد أيضا إرادة، إرادة قوّة لا إرادة حياة...ما الخير؟ كلّ ما يعلو في الإنسان بشعور القوّة وإرادة القوّة، والقوّة نفسها.ما الشّرّ؟ كلّ ما يصدر عن الضّعف.ما السّعادة؟ الشّعور بأنّ القوّة تنمو و تزيد، وبأنّ مقاومة ما قد قضي عليها.لا رضى، بل قوّة أكثر وأكثر.لا سلام مطلقا، بل حربا. لا فضيلة، بل مهارة...الضّعفاء العجزة يجب أن يفنوا،هذا أوّل مبدإ من مبادئ حبّنا للإنسانيّة. ويجب أيضا أن يساعدوا على هذا الفناء.أيّ الرّذائل لأشدّ ضررا؟ الشّفقة على الضّعفاء العاجزين..."[1] .تلك هي القيم الجديدة الّتي جاء زرادشت يعلنها للإنسانيّة وقد بلغت أقصى درجات الانحلال، وكلّها صادرة عن فكرة القوّة وتقديسها، لأنّه رأى أنّ إرادة القوّة هي جوهر الوجود، وعن طريقها يمكن تفسير كلّ مظاهره، يقول:"فليس الوجود إلّا حياة، وليست الحياة إلّا إرادة، وليست هذه

[1]. عدوّ المسيح - فريدريك نيتشه، ترجمة جورج ميخائيل ديب. ط:2، دار الحوار،(د.ت)، ص:24

الإرادة إلّا إرادة قوّة"[1].وبمقدار شعورنا بالحياة والقوّة، يكون إدراكنا للوجود. وبذلك تتبدّل مفاهيم القيم عنده لتصبح الحياة الخيّرة، هي الحياة القويّة، حياة من يسيطرون على دوافعهم ولا يشعرون بالحاجة إلى استئصالها أو كبتها. فالخيّر عند نيتشه هو القويّ الّذي يعرف كيف يسيطر على مشاعره وانفعالاته. "وإذا كانت إرادة القوّة هي مقياس القيم في الحياة، فذلك لأنّ القيمة حسب تعريف نيتشه لها، هي أكبر مقدار من القوّة يستطيع الإنسان تحصيله. والأمر الهامّ ليس هو كمّية القوّة، بل كيفيتها"[2].

ثمّ يقول نيتشه في الفصل الّذي يحمل عنوان الانتصار غلى الذّات:"لقد أودعتني الحياة سرّها قائلة: إنّني ذلك الّذي يجب أن يعلو على ذاته وينتصر عليها على الدّوام"[3]. إنّ إرادة القوّة هي إرادة الانتصار على الذّات والعلاء بها، كالانتصار مثلا على تحقير الحياة، وعلى الإنسان العدميّ، وعلى روح الشّفقة وغيرها. فسرّ الحياة يمثّله أصدق تمثيل ذلك العلوّ، وتصبح بذلك إرادة القوّة الدّافع إلى العلوّ بالذّات. كما أنّ الغاية من الحياة هي في علوّها على نفسها، لأنّ الحياة ما هي إلّا إرادة نموّ وزيادة و إثراء وتوسّع مستمرّ. ولن يكون هذا العلوّ إلّا على نفسها، لأنّ الحياة هي كلّ شيء."فالقول بأنّ الحياة تعلو على نفسها تلخيص كامل لكلّ فلسفة نيتشه في الوجود الّتي تقوم على

---

[1]. عدوّ المسيح – فريدريك نيتشه. ص: 216

[2]. محاولة جديدة لقراءة فريدريك نيتشه - صفاء عبد السّلام علي جعفر. ص:284

[3]. هكذا تكلّم زرادشت - فريدريك نيتشه. ص:371

أساسين:

1. إرادة القوّة وتوجد في لفظ العلوّ.

2. الحياة هي الوجود الحقيقيّ كلّه، ولا وجود غيرها"[1].

فسرّ الوجود والغاية الأولى والأخيرة منه يتمثّل في النّموّ المتزايد لقواه الكامنة. وفهم شيء ما يعني أن نميّز فيه إرادة القوّة، ولهذا الشّيء أو ليس له قيمة وفقا لإرادة القوّة الّتي تعبّر عن نفسها فيه. ومن ذلك يتبيّن لنا ما إذا كانت هذه الإرادة تعبّر عن الحياة القويّة حقّا أو عن الحياة الضّعيفة.

كما يكشف نيتشه في كلّ ما ينتقده، أنموذجا معيّنا من الإرادة السّلبيّة، وفي كلّ مكان من نقده يتركنا نستشفّ ما يمكن أن تكون الأشياء لو كانت تحرّكها إرادة إثباتية. إنّه يكشف أوّلا في الدّين أو في الإيمان بعالم المقدّسات عمل هذه الإرادة السّلبيّة. هذا الدّين الّذي تحرّكه إرادة الانتقام، والرّازح تحت عبء القيم الإلهية، يسعى لجعلها تثقل كاهل الآخرين. لذا ينطلق زرادشت في حرب ضدّ أولئك الّذين يشفقون على الإنسان المسكين في فصل أسماه بالرّحماء.

والحقل الثّاني الّذي تنتصر فيه الإرادة السّلبيّة، هو حقل علم الأخلاق و السّياسة، حيث يعلن الحرب ضدّ أولئك الّذين يسعون لتعزية أنفسهم بسبب نقاط ضعفهم عبر وصفها بالفضائل،

[1]. نيتشه - عبد الرّحمن بدوي. ص: 224

يقول:"يصبح الجبن حكمة، والانقياد شجاعة، والتّعب اعتدالا..."[1]، وينتقمون منها بفرضها على الآخرين باسم عدالة زائفة لا تفيد في شيء إلّا في الحطّ من قيمة الأقوياء. إنّه يكشف إرادة الانتقام لدى مسمّمي الحياة، الواعظين بالتّحفّظ والمساواة، الشّبيهين بالعناكب الّتي تشلّ من توقعهم في شباكها، إذ إنّهم ينتقمون من رداءتهم بالسّعي لكي يوقعوا فيها أولئك الّذين يتجاوزونهم.

ويكشف نيتشه في المعرفة أخيرا إرادة سلبيّة، ويفضح زرادشت الحكماء والمفكّرين والعلماء والفلاسفة الّذين حتّى حين احترفوا الصّرامة العقلانيّة، لا يكونون فعلوا مع ذلك غير الإبقاء بشكل آخر على هذه الثّقافة الّتي تؤمن بالعالم الآخر.وإذا كان عرفان نيتشه يتباهى كثيرا بنزاهته، فلأنّه سوى انحراف بالنّسبة لأناس عاجزين. أمّا أولئك الّذين يطمحون إلى حدوس متميّزة، فهم ليسوا أفضل في الواقع من المثرثرين بأفكار جاهزة سلفا.

من ذلك يتبيّن لنا أنّ إرادة القوّة هي إرادة العلوّ بالذّات والانتصار عليها.كما يتّضح لنا أنّ نيتشه ليس مخترعا لإرادة القوّة، بل يجدها في الوجود، فهي ليست ذاتيّة، ولا فرديّة أو صوريّة. فالأمر يتعلّق بأنّ الموجود الكائن هو إرادة القوّة، ليس بمعنى أنّ كلّ شيء يريد القوّة، فالوضع أبعد ما يكون عن ذلك. بل بمعنى أنّ كلّ شيء هو قوّة تريد، تريد أن تنفي أو تثبت، أن تتراجع أو أن تنمو، أن تتخطّى ذاتها أو تتهاون. وبمقدار شعورنا بالحياة والقوّة، يكون إدراكنا للوجود.

---

1. هكذا تكلّم زرادشت - فريدريك نيتشه. ص:245

لا شكّ أنّ نيتشه قد نجح نجاحا كبيرا في إلقاء الضّوء على إرادة القوّة، لكنّ القول بأنّها وسيلة بواسطتها يمكن تفسير كلّ مظاهر الوجود، فكيف يمكننا أن نفسّر تضحية الإنسان بحياته نفسها في سبيل موقف سام ونبيل بإرادة القوّة؟ وكيف يمكننا أن نفسّر عطاء الإنسان غير المحدود لمن يحيطون به، بإرادة القوّة ؟.

ونحن لا ننكر بأنّ الإنسان يرغب دائما في الحصول على القوّة، لكن لابدّ من وجود قانون يحكم هذه القوّة يلتزم به الجميع. فإذا رغب المجتمع في تحصيل القوّة دون قانون يضبطها، فسيعيش الإنسان في حرب يعتدي فيها كلّ فرد على آخر، وهذا ما يتعارض مع العقل الإنسانيّ الّذي يدعو إلى السّلام.

والسّؤال الّذي نطرحه الآن هو:إذا كانت إرادة القوّة يمكنها أن تريد كلّ شيء، فهل يمكنها أن تريد الماضي ؟ وهل الماضي لا يحبط إرادة القوّة ؟.هذا ما سنجيب عنه في العود الأبديّ.

العـــود الأبـديّ

فلسفة نيتشه في الحقيقة تريد أن تكون إقرارا لكلّ الأشياء بما في ذلك الماضي نفسه. وهذا هو ما يؤكّده مذهب زرادشت في العود الأبديّ. والواقع أنّ فكرة العود الأبديّ لها تاريخ طويل في الفلسفة، بل قبل الفلسفة. فأصولها ترجع إلى عهد الأديان القديمة الّتي قامت بها على أساس أسطوريّ لا يمتّ

إلى العلم أو المنطق العقلي بصلة. واحتلّت الفكرة أهمّية كبيرة في الفلسفة اليونانية، فقد ظهرت لها بوادر في فلسفة أنكسمندر[1]، حيث قال بوجود عدد لا متناهي من العوالم، وإن كنّا لا ندري ما إن كانت هذه العوالم تتعاقب أو توجد معا، غير أنّ ممّا يعزّز الرّأي القائل بأنّها تتعاقب، اعتقاد أنكسمندر بالفناء الكوني، ومن هنا يمكن القول إنّه قد عرف نوعا من التّعاقب بين أحوال مختلفة للعالم، يقرب ممّا تقول نظريّة العود الأبديّ، وإن لم نكن على ثقة من أنّ كلّ عالم ستتكرّر فيه بدقّة نفس حوادث العالم السّابق كما تقول النّظريّة.

وازدادت الفكرة وضوحا عند هرقليطس[2]، فالنّار في رأيه، وهي عنصر الكون الأساسيّ، تلتهم العالم بين فترة وأخرى، فيعود العالم بعد ذلك عودا مماثلا لصورته السّابقة، وذلك خلال دورات معيّنة من الزّمان. كذلك قال أنبادوقليس[3] بتتابع أبديّ لعوالم متتالية، حيث رأى بأنّ العالم في حالة تغيّر دائم، يتمّ خلاله تبادل السّيطرة بين قوّتي الحبّ والكراهية، بحيث يكمل الكون دورته كلّما عاد أحد هذين العنصرين إلى السّيطرة الكاملة. وإذا كنّا في كلّ هذه الآراء لم نصادف بعد عودا أبديّا تتماثل فيه كلّ التّفاصيل الدّقيقة للعالم، فلا شكّ أنّ هذه الفكرة قد ظهرت بحذافيرها لأوّل مرّة لدى الفيثاغوريّين. فهناك شواهد تثبت بأنّهم رأوا الزّمان يعود كما سار من قبل، فتتكرّر كلّ حوادث العالم

[1]. الفيلسوف اليوناني (546- 610 ق.م)

[2]. الفيلسوف اليوناني (475-540 ق.م)

[3]. الفيلسوف اليوناني (430-490 ق.م)

مثلما تتكرّر فصول السّنة بعد أن تتمّ دورتها، ويمكننا أن نجد في فلسفة نيتشه ما يدلّ على أنّ العود الأبديّ يعني أنّ العالم يمرّ بدورات لا متناهية، وتظلّ هذه الدّورات تتكرّر إلى الأبد خلال الزّمان اللّامتناهي، كلّ منها مماثلة للأخرى في كلّ صغيرة وكبيرة. بمعنى أنّ كلّما يوجد سيعود من جديد عددا لا متناهيا من المرّات، وأنّه قد حدث من قبل، وسيحدث من جديد كلّ مرّة وإلى الأبد. فلا توجد بداية أو نهاية أو حتّى وسط لقصّة العالم، لأنّ كلّ ما يحدث في الزّمان يتكرّر بنفس الهويّة، متضمّنا كلّ ما في العالم من خير وشرّ. ولذا فإنّ كلّ الأحوال الّتي مرّ بها العالم، قد مرّ بها من قبل عددا لا نهائيا من المرّات، يقول في خطبة الجمل:"سأعود مرّة أخرى مع هذه الشّمس، وهذه الأرض، وهذا النّسر، وهذا الأفعوان، لا إلى حياة جديدة أو حياة أفضل أو حياة شبيهة، سأعود أبدا إلى نفس هذه الحياة في كلّ صغيرة وكبيرة منها، لأدعو مرّة أخرى إلى العود الأبديّ لكلّ الأشياء، ولأتكلّم مرّة أخرى عن وقت الظّهيرة العظيم بالنّسبة للأرض وللإنسان، ولأعلن عن مجيء الإنسان الأعلى"[1].ويقول أيضا:"...أيّها الإنسان، إنّ حياتك كالسّاعة الرّمليّة، ستعود من جديد، وستذهب من جديد دائما أبدا"[2]. فجميع الأشياء تعود أبدا، ونحن معها عائدون، ونحن قد وجدنا من قبل مرارا لا عدد لها، ومعنا جميع الأشياء أيضا.

---

[1]. هكذا تكلّم زرادشت - فريدريك نيتشه. ص: 189

[2]. م. ن: 189

ونيتشه يقترح فكرة العود الأبديّ كبديل ضروريّ لفكرة الخلود في العالم الآخر، وفيها يتحقّق الخلود للإنسان في هذه الحياة، وتصبح كلّ لحظة أبديّة، ويصبح كلّ فرد إلها بمعنى القدرة على إبداع القيم الخاصّة به. كما يلاحظ أنّ الوجود عند نيتشه ليس صيرورة مستمرّة لا نهائيّة، وإنّما تأتي فترة يسمّيها باسم السّنة الكبرى للصّيرورة، وعندها تنتهي دورة الصّيرورة لتبدأ دورة جديدة، وهكذا دواليك، فزمان الوجود مقسّم إلى دورات، وكلّ دورة تكرار تامّ للدّورة الّتي سبقتها. فكأنّ صور الوجود بأسرها تتكرّر بلا انقطاع في الزّمان اللّانهائيّ. وهذا التّكرار يتناول كلّ التّفاصيل والجزئيّات.

كما ذهب البعض إلى أنّ فكرة العود هي النّتيجة الفلسفيّة الكبرى للمذهب الآلي، لأنّ العالم في رأي هذا المذهب، آلة عمياء من شأنها أن تمرّ بنفس الحالات مرّات لا متناهية. لكنّ نيتشه يرى أنّ التّصوّر الجديد الّذي يضعه للعالم من خلال فكرة العود الأبديّ ليس تصوّرا ميكانيكيّا، لأنّ النّظريّة الميكانيكيّة نظريّة ناقصة، ومجرّد افتراض مؤقّت. ويقوم رفض نيتشه للآليّة على أساس أنّها تصف الكمّ فحسب، ولا يمكنها أن تفسّر ظاهرة القوّة الّتي يعبّر الكيف عنها، كما يرى أنّ التّصوّر الآلي قاصر، أي إنّه تفسير جامد للكون، وهو تفسير يفتقد للحياة. فالعامل الكمّي يضع حدودا للقوّة، لأنّ إرادة القوّة تسعى إلى الارتفاع إلى الذّروة، ثمّ تهبط مرّة أخرى في دائرة أبديّة. ممّا سبق يتّضح لنا "أنّ القاعدة الأخلاقيّة الأساسيّة في العود الأبديّ: عش بحيث ترغب في الحياة ثانية، قد استبدلها نيتشه

بقاعدة إيمنويل كانط[1] الأخلاقيّة: افعل بحيث تصلح قاعدة سلوكك لتكون قانونا عامّا يسري على الجميع" [2]. وإذا كانت القاعدتان تشتركان في هدف واحد وهو إلزام الفرد بمسؤوليّة فعله، فإنّ كانط يحقّق هذا الهدف عندما يشعر الفرد بأنّ تصرّفه قد غدا قاعدة عامّة للبشر أجمعين، ومن ثمّ يتوخّى الحذر ويتجنّب الخطأ في سلوكه. أمّا نيتشه فيحقّق هذا الهدف على نحو مخالف، فيدعوا الفرد إلى العمل على أفضل نحو ممكن، لأنّه سيظلّ يفعل نفس الفعل مرّات لا نهائيّة. ويختتم نيتشه الجزء الثّالث بالأختام السّبعة أو نشيد البداية،الألف والياء، وهي بمثابة أدعية للعالم ولأبدية العالم. والفرح الّذي يتحدّث عنه فيها هو فرح العالم، أمّا الألم فهو يعبّر عن بنية أساسية في الوجود الإنساني الزّائل. وينتهي كلّ ختم من الأختام السّبعة بالنّهاية التّالية:"كيف لا أحنّ إلى الأبديّة، وكيف لا أضطرم شوقا إلى خاتم الزّواج إلى دائرة الدّوائر، حيث يصبح الانتهاء ابتداءا ؟ إنّني لم أجد حتّى الآن امرأة أريدها أمّا لأبنائي، إلّا المرأة الّتي أحبّها، لأنّني أحبّك أيّتها الأبديّة...أحبّك أيّتها الأبدية "[3].

وبهذا يمكن القول بأنّ الإنسان الأعلى هو الإنسان الّذي يمكنه أن يثبت العود الأبديّ. كما أنّه هدف الإنسانيّة، وهو عند نيتشه كائن فرد يعبّر عن أعلى حالة يمكن للإنسانية بلوغها، إنّها حالة تتجاوز الإنسان الحالي أوإنسان القرن التّاسع عشر معاصر نيتشه، وهما ما أسماه نيتشه بالإنسان

[1]. الفيلسوف الألماني (1724-1804)

[2]. محاولة جديدة لقراءة فريدريك نيتشه - صفاء عبد السّلام علي جعفر. ص:234

[3]. هكذا تكلّم زرادشت - فريدريك نيتشه. ص:198

المتفوّق.

فهل استطاع هذا الإنسان المتفوّق أن يصل إلى الإنسان الأعلى ؟

الإنسان المتفوّق والإنسان الأعلى

الأمر عند نيتشه لم يقتصر على تغيير الوعي الفرديّ فحسب، بل أصبح الأمر يخصّ وعي البشريّة بأسرها، فهو ينتظر الخلاص على يد جيل من الأبطال المبدعين يقهر ليل العدميّة، ويتجاوز **الإنسان الأخير**[1]، ويحقّق معنى الأرض. فبعد أن أدّى زرادشت رسالته العليا، اكتشف المسافة الفاصلة بين معاصريه والمبدعين الّذين يناديهم، والنّاس السّامين الّذين يبشّر بهم.

ويقصد نيتشه بالإنسان المتفوّق، إنسان نهايات القرن التّاسع عشر، معاصر نيتشه الّذي لا يعتبر الأبشع بين النّاس، لكنّه لا يزال بعيدا جدّا عن الإنسان الأعلى. وهذا الإنسان يمثّله نيتشه في صور هي على التّوالي: الملكين، العالم، السّاحر، البابا الأخير، وأخيرا ظلّه الخاصّ به.

أمّا الملكان(ملك اليمين وملك اليسار)، فلهما القيم نفسها الّتي يدافع عنها زرادشت، فالملكان يحملان المثل العليا ذاتها، وكلاهما أتعبتهما السّلطة.

[1]. هو الّذي أدرك زيف العالم الآخر وتحرّر من إكراهه، ولكنّه عاجز عن إبداع قيم جديدة. ويفهم موت الإله بأنّه لم يعد هناك أخلاق أو واجب أو قاعدة تسير على هديها الحياة.

والعالم أو إنسان العلقة، وهو إنسان إيجابيّ منغلق على ذاته بفعل وساوسه الفكريّة الصّارمة، داخل اختصاص ضيّق، أراد استبدال القيم الإلهية، والدّين، وحتّى الأخلاق بالمعرفة.

والسّاحر، وهو فنّان فقد كلّ قناعة، وإذا كان مستمرّا في اللّعب، فهو يفعل ذلك آليّا.

والبابا الأخير، فهو يتأسّف على الإله الميّت، ويستمرّ في إعطاء البركة والتّصرّف بشكل آليّ هو الآخر، كما لو كان الإله على قيد الحياة.

وأخيرا ظلّ زرادشت، وهو الّذي سعى في كلّ مكان إلى تحقيق هدفه(الإنسان الأعلى)، لكنّه أخطأ هدفه لأنّ هذا الهدف هو ذاته ظلّ. ظلّه الّذي يتبعه إلى كلّ مكان لكنّه يختفي في ساعة استحالة المهمّة. فبعد موت الإله، يبحث النّاس المتفوّقون عبثا عن السّعادة الّتي يعرفون أنّهم لم يعودوا قادرين على العثور عليها في عالم آخر. هذا ما يقوله لنا من جديد، بعد الملكين والعلماء والفنّانين والكهنة، الّذي وجد النّاس يجترّون الماضي عاجزين عن الهضم. فالإنسان الّذي لا هدف له ولا مبرّر لديه لما يفعله في عالم لا معنى له، هذا الإنسان يفتقد السّعادة. أمّا زرادشت، فيعرف السّعادة الحقيقيّة، سعادة هذا العالم، سعادة الأرض الّتي يتمدّد عليها، سعادة الهدف الّذي نبلغه والعمل الّذي ننجزه. هذه هي السّعادة الّتي يحاول أن ينقلها إلى النّاس المتفوّقين الّذين جمعهم كلّهم في غاره، يدعوهم كي يشاركوا في عشاء سريّ جديد، وخلال كلّ مأدبة سوف يعيد الاتّصال مباشرة

بالاستهلال، منشدا لهم الإنسان الأعلى، ذلك الّذي يعلو، الشّجاع، واضح الرّؤية. لكن زرادشت ليس يائسا، فالإنسان أخطأ هدفه، فالإنسان المتفوّق بعيد جدّا عن الإنسان الأعلى، لكنّ كلّ شيء لا يزال ممكنا.

لكنّ هؤلاء النّاس المتفوّقين لا يفهمون، فما أن يخرج زرادشت، حتّى يقترحوا كلّ بدوره علاجات أخرى ليأسهم. ثمّ إنّ زرادشت الّذي يسمعهم يضحكون جميعا، يفرح معتقدا أنّهم على طريق الشّفاء. ومن المؤكّد أنّ ضحكتهم ليست تلك الّتي يريد أن يعلّمهم إيّاها، إلّا أنّ ضحكتهم تبدو له أنّها تشكّل تقدّما إزاء صرخات اليأس الّتي كانوا يطلقونها في السّابق. ثمّ يجتذب زرادشت هؤلاء النّاس المتفوّقين إلى نشيد فرح، نشيد منتصف اللّيل، بداية يوم جديد وسنة جديدة وأبديّة جديدة، ينشد فيه حبّ الأرض وخلود اللّحظة، والأبديّة المقدّمة للإنسان، والفرح الهائل الّذي يبرّر كلّ شيء حتّى أسوأ الآلام. وإزاء علامة مزدوجة، يفهم زرادشت أنّ ساعة الإنسان الأعلى قد حانت أخيرا، الطّور الثّاني من التّحوّل يتمّ الآن.العلامة الأولى من جهة تتمثّل في الأسد الهدّام، ولم يبق له إلّا أن يزأر ضدّ النّاس المتفوّقين. ومن جهة أخرى، العلامة الثّانية تتمثّل في الطّفل الّذي يحلّ محلّ الأسد، أبصر النّور في سرب من الحمام يبشّر بهؤلاء الآلهة الجدد، مثلما كانت حمامة تدلّ على يسوع، يسوع ابن اللّه المحبوب. فلقد وصل الإنسان الأعلى الّذي كان يبشّر به الاستهلال.

هذا فيما يخصّ مضمون خطب زرادشت بصفة عامّة، والآن سنتطرّق إلى رأي نيتشه في بعض

القضايا الّتي أدرجها ضمن خطبه، كالملذّات والشّهوات، المجرم الشّاحب، القراءة والكتابة، الصّديق، محبّة القريب، الطّفل والزّواج، الموت، العرّاف. **فما كان رأيه في هذه القضايا ؟**

خطب زرادشت

عالج نيتشه ضمن خطبه العديد من القضايا، فنظرا إلى حجم البحث، لا يمكننا التّطرّق إليها جميعها، فاكتفينا بشرح بعض منها وهي كالتّالي:

الملذّات والشّهوات:

بالنّسبة لنيتشه هي السّعادة الّتي تنمّي وتثري الفضيلة، وليس مثلما كان يعتقد أنّها سبب آلام ومعاناة الإنسان. فأصل الفضائل عنده هي الشّهوات نفسها، لأنّ الإنسان وضع أسمى مقاصده في هذه الشّهوات، وبذلك تحوّلت إلى فضائل، يقول نيتشه على لسان زرادشت: "لقد كان فيما مضى شهوات...أمّا الآن فليس فيك إلّا الفضائل، وقد نشأت هذه الفضائل من شهواتك نفسها"[1].

ومن هنا نلاحظ انقلاب القيم عند نيتشه؛ حيث يتصوّر مفهوم القيمة على أنّه يجب أن لا يعادي الجسد ولا الحياة، كما كانت تنادي بذلك المسيحيّة.

المجرم الشّاحب:

إذا كان القضاة والحكّام يعتبرون المجرم سافلا ودنيئا، فنيتشه لا يعتبره كذلك بل يصفه بالمرض

[1]. هكذا تكلّم زرادشت - فريدريك نيتشه. ص:28

فيقول: "قولوا إنّ هذا الرّجل عدوّ ولا تقولوا إنّه سافل، صفوه بالمرض لا بالدّناءة، اعتبروه مختلّا لا مجرما"[1]. كما أنّ العقاب عند نيتشه لم يبتدع لغرض المعاقبة، ولكنّه ابتدع كتعويض يصاحبه انتقام الدّائن من المدين. والعقاب يؤدّي إلى نتائج خطيرة وضارّة، منها أنّه يجعل الإنسان قاسيا باردا، وهو يؤدّي إلى زيادة الخوف وغير ذلك.

القراءة والكتابة:

يعترض نيتشه على جميع ما كتب غير الّذي كتبه الإنسان بقطرات دمه إذ يقول: "إنّني أستعرض جميع ما كتب، فلا تميل نفسي إلّا إلى ما كتبه الإنسان بقطرات دمه"[2]، وبذلك فهو يربط الكتابة بالجسد. ويرفض أن يعطى الحقّ لكـلّ إنسان في تعلّم القراءة، لأنّ ذلك في نظره سيفسد الكتابة والفكر معا. كما يعتبر تجربة الكتابة مثل تجربة خلق العالم، فهي قراءة للحياة بطريقة أخرى.

الصّديق:

يعتقد نيتشه أنّ الإنسان بحاجة إلى صديق، لأنّ الثّقة في إنسان آخر تقوده إلى الثّقة في نفسه. كما يعتقد أنّ التّصنّع ضروريّ لنجاح علاقات الصّداقة، يقول: "من لا يعرف المصانعة يدفع بالنّاس

---

[1]. هكذا تكلّم زرادشت – فريدريك نيتشه. ص:29

[2]. م. ن: 31

إلى الثّورة عليه، فاحذر العري...لأنّك لست إلها، والآلهة دون سواهم يخجلون من الاستتار. عليك بارتداء خير لباس أمام صديقك، لتهيب به إلى طلب المثل الأعلى: الإنسان المتفوّق"[1]. أمّا بالنّسبة للمرأة، فإنّ نيتشه يخرجها من دائرة الصّداقة، فهي ليست أهلا لها ومازالت لم تبلغ ما يؤهّلها للوفاء كصديقة. ذاك هو رأي نيتشه في الصّداقة.

محبّة القريب:

هذا النّوع من المحبّة هو في واقع الأمر محبّة سيّئة في نظر نيتشه؛ فهو يعتبرها أنانية إذ يقول: "إنّ محبّتكم للقريب إن هي إلّا أنانية مظلّلة"[2]. فهو يرى في اللّجوء إلى القريب هروب من النّفس، لذلك يدعو النّاس إلى الابتعاد عن أقربائهم حتّى يتمكّنوا من محبّة الإنسان الأعلى، لأنّ فوق محبّة القريب تكمن محبّة هذا الإنسان المنتظر.

كما يدعو إلى محبّة الصّديق في قوله: "لا أدعوكم إلى محبّة القريب، بل أدعوكم إلى محبّة الصّديق"[3]، لأنّ الصّديق في نظره ينبّئ بالإنسان الأعلى. ثمّ يختتمها بقوله: "لا أشير عليكم بمحبّة القريب أيّها الإخوة، بل بمحبّة ذلك الآتي البعيد"[4]. وبالتّالي فإنّ الغاية من محبّة الصّديق هي محبّة

---

[1]. هكذا تكلّم زرادشت – فريدريك نيتشه. ص: 46

[2]. م. ن: 49

[3]. م. ن: 50

[4]. م. ن: 50

ذلك الإنسان الأعلى.

الطّفل والزّواج:

في رأي نيتشه "هو اتّحاد إرادتين لإيجاد فرد يفوق من كانا علّة وجوده. فالزّواج حزمة متبادلة ترسو على احترام هذه الإرادة"[1]. إنّ نيتشه يقدّس ذاك الزّواج الّذي تكون الغاية منه إبداع فرد يفوق الشّخصين اللّذين أتيا به إلى هذا العالم، يقول: "عليك أن توجد جسدا جوهره أنقى من جوهر جسدك"[2]؛ أي أن يكون أفضل وأرقى من والديه. ذاك هو الزّواج الحقيقيّ في نظره. أمّا ما كانت غايته غير ذلك وارتبط بمباركة السّماء (الآلهة)، فهو يعتبره"مسكنة روحيّة يتقاسمها اثنان، ودنس يتمرّغ به اثنان، ولذّة بائسة تتحكّم في اثنين"[3].

كما أنّ الحبّ في نظره وسيلة للعلوّ تتحقّق من خلالها فكرة الإنسان الأعلى، يقول: "إنّ في كلّ كأس حبّ إطلاقا وحتّى في كأس أرقى حبّ مرارة لابدّ لكم من تجرّعها، وهذه المرارة هي الّتي تنبّه فيكم الشّوق إلى الإنسان المتفوّق، وتلهب فيكم الظّمأ أيّها المبدعون"[4]. ذلك الظّمأ والشّوق إلى الإنسان الأعلى اللّذان يدفعان الشّخص لطلب الزّواج، هما نفسهما اللّذان يجعلان ذلك الزّواج

---

[1]. هكذا تكلّم زرادشت – فريدريك نيتشه. ص:57

[2]. م. ن: 57

[3]. م. ن: 57

[4]. م. ن: 57

مقدّسا في نظر نيتشه.

تخيّر الموت:

الموت بالنّسبة لنيتشه لا يعتبر نهاية الحياة وانقطاع الإنسان عنها، بل هو تجربة يستطيع من خلالها الإبداع مادام أنّ هناك عود أبديّ، فإيمانه به يدفعه إلى القيام إلّا بأجلّ الأعمال وأحقّها بالتّكرار.

العرّاف:

شخصيّة رمزيّة تنافس النّبي زرادشت وتتجاوز الحاضر نحو المستقبل، حيث كان يخطب في النّاس وفي تبدّل أحوالهم بعد أن رأى أنّ الحزن قد هيمن عليهم، وضعفت قواهم فنفذ كلامه إلى قلب زرادشت وغيّره فأصبح حزينا، ثمّ خاطب أتباعه قائلا: "لن يمض زمن طويل حتّى ينسدل هذا الغسق القائم على وجه الأرض، وأنا أحاذر إلّا لأجد وسيلة للعبور بنوري إلى ما وراءه فأنقذه من الانطفاء"[1]. يعني بذلك أنّ الحال لن يدوم، وأنّه سيجد الطّريقة لإنقاذ العالم من الظّلام والخروج به إلى النّور، فرغم منافسة العرّاف لزرادشت إلّا أنّه ظلّ شخصيّة منبوذة.

كان هذا فيما يخصّ الخطب. بقي لنا الآن استخلاص نتائج هذا البحث، والّتي سنقف عند بعض منها في الخاتمة.

[1]. هكذا تكلّم زرادشت – فريدريك نيتشه. ص:50

الخاتمـــــــــــــة

تحدّثنا فيما سبق عن نبيّ جبران وزرادشت نيتشه ولزمنا في هذه الخاتمة أن نخلص أوّلا إلى قضيّة مهمّة نتجت عنها مجموعة من الاستنتاجات ألا وهي الوقوف على شخصيّة جبران ونيتشه وتحديد بعض نقاط الالتقاء بين هتين الشّخصيّتين.

فكلا الرّجلين نشأ في بيئة متعبّدة، وثار عليها فجدّ جبران لأمّه كان كاهنا مارونيّا، ووالد نيتشه كان قسّيسا بروتستانيّا. وقد عرفا منذ الحداثة بالصّراحة الخشنة وصلابة الرّأي، والميل إلى العزلة، وقد عانيا من البؤس والحرمان والعلّة المزمنة ما عانياه. كما أنّهما أحبّا الجمال وانصرفا إليه متخلّصان من التّشاؤم، إضافة إلى أنّ كلّا منهما أحسّ بالعبوديّة معنويّة أكثر منها ماديّة، وأنّ التحرّر الحقيقيّ لا يبدأ إلّا في الثّورة على الذّات الضّعيفة.

فحياة جبران بما فيها من آلام وأحزان وأفراح كان لها الأثر العميق في أدبه، فآلام الغربة والحنين إلى الوطن، بالإضافة إلى الوحدة والمرض وغيرها، كلّ هذا كان له أثر واضح مؤلّفاته. كذلك نيتشه وتفكيره اعتبر وحدة شخصيّة لا تنفصم، فتفكيره هو الّذي يحدّد كلّ وقائع حياته ويوجّهها.

كما أنّ أدب جبران يحمل كلّ التّناقضات الّتي عاشتها نفسه، فقد غلب على أدبه عالمان متمايزان عالم المثل الّذي يسيطر على عالم الواقع، كما هو الحال في النّبيّ، وعالم الواقع الّذي يتصدّى فيه جبران للمؤسّسات الاقتصاديّة والدّينيّة والسّياسيّة كما هو الحال في قصصه يوحنّا المجنون، خليل الكافر،والأجنحة

المتكسّرة. كذلك عانى نيتشه في حياته من تناقض لا مفرّ منه، بين ما يريده ككائن إنساني، وما يرجو أن يفعله كصاحب رسالة.

هذا فيما يتعلّق ببعض النّقاط المشتركة في شخصيّتيهما فماذا عن مدى التّقارب بين كتابيهما؟

النّبيّ يشبه إلى حدّ ما شكل زرادشت على الرّغم من صغر حجمه الّذي يقلّ عن حجم زرادشت، فكلاهما كتب على الطّريقة الشّذريّة حيث يرى نيتشه أنّ الكتابة الملائمة لقرّائه هي تلك الكتابة الّتي المقطعيّة الّتي تنبذ الاستمرار والوصل، فهو سعى إلى إحياء أسلوب جديد لم يسبقه إليه أحد من معاصريه. كما أنّ جبران لم يسبقه لهذا الأسلوب غير نيتشه، ولهذا ربّما يكون قد تأثّر بطريقة نيتشه في الكتابة وبأسلوبه. يقول جبران:"فلسفة نيتشه تتخبّط في الظّلال، لكنّي أرتاح إلى أسلوبه."[1]

ويقول أيضا:"أسلوبه كان يلذّ لي دائما."[2] فشكل النّبي الإجماليّ مأخوذ من زرادشت نيتشه وذلك من حيث أساليبه البيانيّة والفنيّة، فكلاهما اختار من التّشابيه والاستعارات والمجاز ما يناسب أفكارهما، وأمثلة ذلك كثيرة سواء في النّبيّ أو في زرادشت.

يقول جبران في الموت:"...وهل موت الإنسان هو أكثر من وقوفه عاريا في الرّياح وذوبانه في حرارة

---

[1].جبران خليل جبران في ضوء المؤثّرات الأجنبيّة- نذير العظمة. ص:191

[2]. م.ن:191

الشّمس."[1] إنّ جبران شبّة موت الإنسان بذوبان الثّلج تحت حرارة الشّمس وهي كناية عن صفة.

ويقول نيتشه في حديثه عن الجسد:"...ما الحسّ وما العقل إلّا أدوات وألعوبة، والذّات الحقيقيّة كامنة وراءهما مفتّشة بعيون الحسّ ومصغية بآذان العقل."[2] وهل للحسّ عيون وللعقل آذان؟

ومن أمثلة المجاز يقول جبران:"بمثل أيدي هؤلاء يتكلّم الله، ومن خلال عيونه يبتسم."[3]

ويقول نيتشه:"سأشرح لكم تحوّل العقل في مراحله الثّلاث فأنبّئكم كيف استحال الجمل أسدا، وكيف استحال الأسد فصار ولدا."[4] إذن كيف للجمل أن يتحوّل إلى أسد وللأسد أن يصير ولدا؟ وهذا ليس شيئا حقيقيّا إنّما مجاز أراد من خلاله نيتشه معنى آخر غير معناه.

وتجدر الإشارة إلى أنّ كلّا من جبران ونيتشه استعملا ألفاظا من الكتاب المقدّس، ويظهر ذلك من خلال اللّهجة النّبويّة الّتي يخاطب بها كلاهما شعبه. يقول نيتشه:"والحقّ أقول لكم يا إخوتي..."[5]. ويقول جبران أيضا:"يا أبناء أمّتي الأولى..."[6] كما أنّ كلاهما استعمل عناصر الطّبيعة مثل:البحر، الجبال، السّماء... ومن أمثلة ذلك يقول نيتشه على لسان زرادشت:"أنّ نفسي تندفع مرغية مزبدة

---

[1]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة- جميل جبر. ص:138

[2]. هكذا تكلّم زرادشت- فردريك نيتشه. ص:25

[3]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة- جميل جبر. ص:92

[4]. هكذا تكلّم زرادشت- فردريك نيتشه. ص: 17

[5]. م. ن: 65

[6].المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة- جميل جبر. ص:78

في الوديان متملّصة من الجبال الصّامتة، تصخب فوقها عواصف الآلام."[1] ومن أمثلة ذلك في النّبي يقول جبران:"أيتحوّل قلبي إلى شجرة كثيرة الثّمار...أتفيض رغباتي كالينبوع...؟"[2] بالإضافة إلى كثرة استعمالهما للنّداء يقول نيتشه:"أيّها النّهار، أيّها العالم الغريب، أيّها الرّجال الرّاقون..."[3] ويقول جبران على لسان مصطفاه:"يا أبناء أورفليس، بماذا أحدّثكم؟[4]

وكما اتّخذ نيتشه زرادشت نبيّا ليعبّر بلسانه عن أفكاره، كذلك اتّخذ جبران نبيّا سمّاه المصطفى، نثر على لسانه خطبه ومواعظه. وكما أنّ زرادشت نيتشه كان غريبا بين النّاس ملقيّا بأفكاره عليهم، وبعدما تعبت نفسه من الغربة تركهم وعاد إلى جزره السّعيدة، كذلك مصطفى جبران بعد أن ألقى مواعظه على مسامع النّاس عاد من غربته إلى بلاده ومسقط رأسه. ثمّ إنّ زرادشت نيتشه حينما يستعدّ للرّحيل والعودة يصعد جبلا عاليا وحين صعوده يكتشف حزنه وآلامه، فيخاطب البحر قائلا:"وأنت أيّها البحر القائم الحزين...أيّها القدر وأيّها البحر! إليكما أنحدر الآن."[5] ومصطفى جبران أيضا يصعد هضبة خارج أورفليس فيرى البحر ويخاطبه بقوله:"وأنت أيّها البحر العظيم، أيّتها الأمّ الهاجعة، فيك وحدك يجد النّهر والجدول سلامهما."[6]

---

[1]. هكذا تكلّم زرادشت- فردريك نيتشه. ص:80

[2]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة- جميل جبر. ص:81

[3].هكذا تكلّم زرادشت- فردريك نيتشه. ص:267

[4]. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة- جميل جبر. ص:83

[5]. هكذا تكلّم زرادشت- فردريك نيتشه. ص:88

[6].المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة- جميل جبر. ص:80

ومع أنّ النّبيّ في بنيته الخارجيّة وإطاره العام مدين لهكذا تكلّم زرادشت، إلّا أنّ أسلوب جبران بارع في تركيب العناصر الفكريّة المختلفة والّتي توحي كأنّها خرجت لتوّها من النّبض ممّا جعله يتفرّد عنه.

ومع إدراك جبران لهذا التّشابه الخارجيّ بين كتابه وكتاب نيتشه يؤكّد على مضمونه المخالف إذ يقول:"سأنشر النّبيّ وعندي أصله العربيّ، بشكله البدائيّ، الّذي كتبته يوم كان لي ستّ عشرة سنة. إنّه طافح بقدسيّة حياتي الباطنيّة. لقد كان على الدّوام في داخلي، لكنّني لم أستطع استعجاله... وأن أنجزه قبل اليوم."[1] هذا ما سنلاحظه من خلال المقاربة بين بعض الخطب.

تحدّث جبران في نبيّه عن امرأة عرّافة دعاها المطرة والّتي كانت أوّل من عرف المصطفى وأسبق النّاس إلى الإيمان به، بينما نيتشه جعل العرّاف في كتابه رجلا منافسا لزرادشت، في حين كان للمطرة مكانتها عند المصطفى كان العرّاف شخصيّة منبوذة بالنّسبة لزرادشت.

ويختلف جبران ونيتشه في نظرتهما للمحبّة فالأوّل يرى أنّ المحبّة تشمل البشريّة جمعاء ويربط كلّ ما في الوجود بجوهر المحبّة. أمّا نيتشه فيرى أنّ المحبّة تقتصر على الإنسان الأعلى دون غيره لأنّه الأجدر والأحقّ بهذه المحبّة.

---

[1].جبران خليل جبران في ضوء المؤثّرات الأجنبيّة- نذير العظمة. ص:194

وعن الزّواج يرى جبران أنّه رباط مقدّس بين اثنين جمعتهما المحبّة، أمّا نيتشه فتختلف رؤيته له بحيث يرى فيه اتّحاد إرادتين لخلق إنسان أعلى يفوق الشّخصين اللّذين آتيا به لهذا العالم.

أمّا فيما يتعلّق بالمجرم وارتكابه للجرائم فكلاهما لا ينبذان المجرم ولا يطلقان عليه صفة الشرّير ولا يعتبرانه مذنبا مهما كان السّبب في ذلك، ومع أنّ جبران يربطه بالصّالح والبارّ إلّا أنّه يقارب نيتشه في نظرته إليه.

كما أنّهما يتّفقان في نظرتهما إلى الصّديق فكلاهما يدعو إلى الصّداقة إلّا أنّها في نظر جبران تقوم على الصّدق وعدم إخفاء الأسرار وتقديم أفضل شيء للصّديق دون انتظار المقابل، أمّا نيتشه فبالنّسبة إليه هي قائمة على التستّر والتصنّع لأنّ الكشف عن خفايا النّفس للطّرف الآخر في نظره يؤدّي إلى نفوره وابتعاده.

كذلك يتّفق جبران مع نيتشه في أنّ اللذّة ليست شيئا سيّئا في الإنسان فجبران يرى فيها انعتاقا وحريّة ونيتشه يعتبرها أساس كلّ الفضائل.

أمّا فيما يخصّ الموت فقد جعله جبران متّصلا بالحياة واعتبره انعتاقا للنّفس وتحريرا لها من القيود حيث يجد فيه راحة ومعبرا لحياة أفضل. أمّا نيتشه فيرى الموت تجربة يستطيع الإنسان من خلالها تقديم أفضل ما لديه، فالموت عند ليس انقطاع الإنسان عن الحياة لأنّ نيتشه كان يحبّ الحياة ويقبل عليها إقبالا شديدا.

وبصفة عامّة فإنّ الفكرة الّتي الأساسيّة للنّبيّ هي غيرها الّتي يتحدّث عنها زرادشت، ففي النّبيّ بحث عن الحقيقة تلك الحقيقة هي المحبّة الّتي تشدّ الأكوان بعضها ببعض، وتجعل للحياة معنى شاملا يتساوى فوق كلّ المقادير والمقاييس البشريّة. إذ أنّ جبران كان يحمل في قلبه إيمانا بقدرة المحبّة على تخطّي المصاعب والعقبات وإيجاد عالم متحرّر من كلّ قيد، من أجل الوصول إلى سعادة البشريّة جمعاء. وفي طريقه الصّعبة نثر حكمته في كلّ زاوية من زوايا الحياة، بدء بالولادة وانتهاء بالموت.

أمّا فكرة زرادشت الرّئيسيّة فهي تتمثّل في خلق إنسان أعلى يفوق البشريّة بأكملها والّتي ربطها نيتشه بالعديد من أفكاره الّتي جاء بها في كتابه، فمثلا يربطها بالمحبّة بالزّواج وغيرها من الأفكار.

وجبران لم يتّجه اتّجاه نيتشه ولم يعتنق مذهبه في إيجاد إنسان أعلى إلّا جزئيّا، فقد ثار على الجبان الذّليل والخاضع المتواكل ليحرّره من ضعفه، ويجعله جديرا بالحياة الّتي تحبّ العزم والثّقة بالنّفس. بينما ثار نيتشه على هذا الإنسان الضّعيف بهدف القضاء عليه نهائيّا لأنّه لا يستحقّ أن يحي تلك الحياة الّتي تحبّ العزم والبطش.

كما أنّ جبران يحبّ السّلم ويؤكّد عليه دائما، عكس نيتشه الّذي يرى أنّ السّلم عند الإنسان يجب أن يكون ذريعة لحرب جديدة، إذ أنّ السّلم والمحبّة والرّأفة بالضّعفاء من أهمّ الأسس الّتي قامت عليها تعاليم المسيحيّة لذلك يرفضها نيتشه، ويستبدل القيم والتّعاليم القديمة بقيم جديدة أساسها القوّة وذلك من أجل تنشئة ما أسماه بالإنسان الأعلى ذال الكائن الّذي يفوق الإنسانيّة جمعاء.

وإذا كان نيتشه يرفض كليّا المسيح والمسيحيّة ويتخلّى عن الإيمان بها من أجل الإنسان الأعلى، فإنّ جبران لا يتّفق أبدا معه في موقفه منهما وإن جاراه في ثورته على رجال الدّين والكنيسة ونقمته على النّاس وسوء أحوالهم. فهو يرى في المسيح إنسانا متفوّقا وليس إلها تجسّد في جسد إنسان، عكس نيتشه الّذي حارب الإله المسيحي باعتباره أساسا لحشد من القيم الخلقيّة الّتي تنتقص من الحياة الأرضيّة، أي إنّه لا يرفض الآلهة أو فكرة الألوهيّة، بل يعني أنّه يرفض إلها ذا طبيعة خاصّة يمقتها.

وأنّ جبران على الرّغم من تعلّقه بعالم المثل، إلّا أنّه ظلّ مرتبطا بالأرض، فقد كان إحساسه بها واضحا وبارزا، بينما اقتصر تعلّق نيتشه بالحياة الأرضيّة، وما عالم المثل إلّا إنكار وإدانة لها، تلك الحياة الّتي يقدّسها أعظم تقديس ويتغنّى بها في كلّ كتاباته. فنجده يلخّص نقائص عصره في عبارة واحدة هي إنكار الحياة، ويلخّص الهدف من حملته النّقديّة في الإقبال على الحياة، فالحياة عنده أصل كلّ القيم الفكريّة والخلقيّة.

وما من شكّ أنّ جبران قد استوعب قدرا متّسعا من فكر نيتشه وفلسفته واستعان به على هدم البيئة القديمة للفكر الكنسيّ والبناء الاجتماعيّ والاقتصادي، لكنّه لم يقدّم بديلا كما فعل نيتشه الّذي قدّم فكرة الإنسان الأعلى كبديل عن الإله المسيحي وفكرة العود الأبدي كبديل ضروريّ لفكرة الخلود في العالم الآخر؛ أي أنّه لا توجد بداية أو نهاية أو حتّى وسط لقصّة العالم، بل عاد أدراجه إلى المحبّة والّتي جعل منها أساسا للحياة.

فتجربة جبران الفكريّة والأدبيّة تتّسم بتميّزها وتفرّدها على الرّغم من تنوّع مصادرها، فهو ليس بمجمّع لمؤثّرات عربيّة وغربيّة بقدر ما هو إنسان يرتبط بالحضارة ارتباطا إنسانيّا، وظيفته أن يهدم ويبني، أن يرفض ويثور متى وقفت الحواجز في وجه الإنسان، وقامت السّدود أمام فكره وقلبه. حاله حال نيتشه الّذي ثار بدوره على الفساد وكلّ ما هو تقليديّ قديم، ساعيا إلى قلب القيم البالية وتأسيس قيم جديدة، وتلك وظيفة ومهمّة فلسفة نيتشه الأساسيّة.

وزرادشت نيتشه ينتمي إلى المرحلة الأخيرة من مراحل حياة، وهي مرحلة النّضج الّتي شنّ فيها حربا على كلّ القيم الخلقيّة، وبشّر بالإنسان الأعلى والعود الأبديّ، وفسّر كلّ شيء بإرادة القوّة.

وبالتّالي فحين تكون المحبّة لا القوّة – الّتي هي المبدأ الأساسي الّذي يهيمن على الوجود في رأي نيتشه – هي المحور في كتاب النّبيّ فماذا يبقى من زرادشت نيتشه إذن غير الشّكل.

هذا ما وفّقنا إلى دراسته، على أنّ هذا الموضوع يمكن أن يثريه غيرنا، وينزل عند جانب لم نثره أو قصّرنا فيه لنترك مجال الدّراسة مفتوحا لغيرنا لاستدراك ما فاتنا.

فهرست المصادر والمراجع

1. بين نعيمة وجبران – طنسي زكا. ط:3، مكتبة المعارف، بيروت، 1988.

2. جبران خليل جبران في دراسة تحليلية تركيبية لأدبه ورسمه وشخصيته – فؤاد غازي براكس. دار النّسر المحلّق، بيروت، 1973.

3. جبران خليل جبران في ضوء المؤثّرات الأجنبيّة – نذير العظمة. ط:1، دار طلاس، دمشق، 1987.

4. جبران خليل جبران (مختارات ودراسات) – سهيل بديع بشروئي. دار المشرق، بيروت، 1970.

5. رسائل جبران – جميل جبر. ط:1، المكتبة الثّقافية، بيروت، 1951.

6. زرادشت نيتشه – بيار هربر سوفرين، ترجمة أسامة الحاج. ط:2، مجد للدّراسات والنّشر، بيروت، 2002.

7. الشّعلة الزّرقاء – سلمى الحفّارالكزبري وسهيل بديع بشروئي. ط:2، مؤسّسة نوفل، بيروت، 1984.

8. عدوّ المسيح – فريدريك نيتشه، ترجمة جورج ميخائيل ديب. ط:2، دار الحوار، (د.ت).

9. العلم المرح – فريدريك نيتشه، ترجمة حسان بورقية ومحمد الناجي. ط:1، إفريقيا الشّرق، 1993.

10. فلسفة الأخلاق (فريدريك نيتشه) – إبراهيم يسري. دار التّنوير، بيروت، 2007.

11. لماذا تكلّم زرادشت – حمّادي ماهر. دار التّكوين، دمشق، 2007.

12. المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران المعرّبة – جميل جبر. ط:1، دار الجيل، بيروت، 1994.

13. المجموعة الكاملة – ميخائيل نعيمة. مج:3، ط:5، دار العلم للملايين، بيروت، 1999.

14. محاولة جديدة لقراءة فريدريك نيتشه – صفاء عبد السلام علي جعفر. دار المعرفة الجامعيّة، (د. ت).

15. المهماز(أساليب نيتشه) – جاك داريدا، ترجمة عزيز توما وإبراهيم محمود. ط:1، دار الحوار، سوريا، 2010.

16. النّزعة الرّوحيّة في أدب جبران ونعيمة – ريموند قبعين. دار الفكر اللّبناني، (د.ت).

17. نقد الحداثة في فكر نيتشه – محمد الشيخ. ط:1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2008.

18. نيتشه – جيل دولوز، تعريب أسامة الحاج. (د.ت).

19. نيتشه – عبد الرّحمن بدوي. ط:5، وكالة المطبوعات، الكويت، 1975.

20. نيتشه – مصطفى غالب. دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1988.

21. نيتشه وسياسة الفلسفة – محمّد أندلسي. ط:1، دار توبقال، المغرب، 2006.

22. هذا هو الإنسان – فريدريك نيتشه. منشورات الجمل، (د.ت).

23. هكذا تكلّم زرادشت – فريدريك نيتشه، ترجمة فليكس فارس. جريدة البصير، الإسكندريّة، 1938.

فهرست الموضوعات

الموضوعـــــــات	الصّفحـة

الإهداء

الشّكر والتّقدير

المقدّمة ..... أ

المدخل: نبذة عن حياة جبران ونيتشه 01

الفصل الأوّل: نبيّ جبران 17

الفصل الثّاني: زرادشت نيتشه 43

الخاتمة 87

فهرست المصادر والمراجع 97

فهرست الموضوعات 101